

وقعة أُحُد

درسٌ عمليٌّ في وجوب إطاعة القيادة العليا

لقد أصاب الجاهليين من اندحارهم بيدر شر عظيم ، فقد قتل سبعون من أشrafهم ، ووسموا بعار لا يحويه إلا انتصار عظيم الشأن ينالونه من المسلمين ، ليستردوا به مكائتهم من قلوب العرب ، باعتبار أنهم القائمون على تمثيل الدين الذي يقدسونه ، وحماية البيت الذي يحجونه .

وكان أشد ما يحفزهم للتفكير في حل جماعة المسلمين ، والاستيصال في مقاتلتهم ، أنهم بقيامهم في طريق تجارتهم إلى الشام ، يوصدون في وجوهم بابا من الرزق ، لو ظل موصدا أصبح مقامهم في مكة من الخال ، واضطروا إلى أن يعيشوا معيشة البدو الرُّحْل ، ييمنون منابت الكلال حيث كان ، كما يفعل البدو الذين يعيشون على ما يفتنونه من الأنعام ، وهي حياة لم يألفوها ، بَلَّة أنها تضطربهم لترك البيت وشأنه يتولى أمره من يستطيعه ، فيسرع إليه المسلمون ، ويكون في ذلك القضاء الأخير عليهم وعلى ملتهم .

والذي جعلهم يلمسون هذا المصير الحتم ، أنهم لما أدركوا استحالة وصولهم إلى الشام من طريق يثرب ، عولوا على اتخاذ طريق آخر إليها من ناحية العراق ، فأرسلوا قافلة تجارية من ذلك الطريق يحميها فريق من أشداء قريش ، معهم سفيان ابن حرب ، وصفوان بن أمية ، وخُوَيْطَب بن عبد العزى ، وهم من صناديد قريش ، فبلغ خبرهم النبي ﷺ ، فأرسل لملاقاتهم كتيبة من مائة راكب تحت إمرة زيد بن حارثة ، وكان ذلك في جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة ، فالتقوا بالقافلة عند ماء اسمه القَرْدَة بنجد ، فقاتل الفريقان ، وانتصر المسلمون وغنموا التجارة ، وهرب حمانها قانعين من الغنيمة بالإياب . فأدرك المشركون أن لا منجاة من المسلمين إلا بإبادتهم ، فأسرعوا للعمل على ذلك قبل أن يخرج الأمر من يدهم . فلندعهم قليلا لنرى ماذا حدث في جماعة المسلمين بعد وقعة بدر .

(١) الصنديد من الناس الشريف الشجاع ، الجمع صناديد .

الأعمال الإسلامية بعد وقعة بدر :

(غزوة بنى قينقاع) - لما حلَّ النبي ﷺ بالمدينة ، كان بجوارها قوم من اليهود يقال لهم بنو قينقاع كانوا قد عقدوا بينهم وبين المسلمين معاهدة عدم اعتداء . ولكنهم لما آنسوا انتصار المسلمين ببدر ، أمضتهم هذا الأمر وأخذوا في معاكسة المسلمين ، فاعتدوا على سيده من نساء الأنصار . فدعا النبي رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغي . فقالوا له : « يا محمد لا يفرئك ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب ، ولو لقيتنا لتعلمن أننا نحن الناس » . فأمره الله أن يبلغهم قوله تعالى : ﴿ سَتُعْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا (يريد المسلمين وجيش المشركين ببدر) ، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ، يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْغَيْبِ ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (١) . فلم يرفعوا بهذا القول رأسا ومضوا في بغدهم . فحاصرهم النبي ﷺ ، فأدركهم الرعب ، فطلبوا الخروج بأنفسهم دون أموالهم . فقيل رسول الله طلبهم ، وجلّوا قاصدين الشام .

(غزوة السويق) - لما بلغ أبا سفيان بن حرب خبر قتل ابنه في معركة بدر ، هاج هاتجاً وأقسم أن لا يمس رأسه ماء حتى يغزو محمداً ، وسوّلت له حمية الجاهلية أن يخرج في مائتين من رجاله ، وقصد أن يقابل رئيس بنى النضير من اليهود ليستنصر بقومه ، فلم يسمح بمقابلته ، فأرسل بعض رجاله فحرقوا نخلا بجوار المدينة ، وصادفوا أحد الأنصار فقتلوه . فخرج إليه النبي ﷺ في مائتين من المسلمين ، فلما بلغه ذلك أدركه الرعب ، فهرب هو ورجاله ، وأخذوا يخفون أنفالمهم باللقاء ما لديهم من الدقيق المتخذ من الخنطة والشعير ، ويسمونه السويق . فسميت هذه الغزوة لهذا السبب بغزوة السويق .

(زواج علي بن أبي طالب بفاطمة الزهراء) - في هذه السنة وهى الثانية ، تزوج علي ، وعمره إحدى وعشرون سنة ، بفاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وسنها

خمس عشرة سنة . وفيها دخل رسول الله بعائشة بنت أبى بكر أم المؤمنين .

(غزوة بنى غطفان) - دخلت السنة الثالثة بعد الهجرة ، وفي ربيع الأول منها أجمع بنو نَعْلبة ومحارب من غطفان على الإغارة على المدينة ، فخرج إليهم رسول الله في أربعمائة وخمسين رجلا . فلقى رجل منهم يقال له دُعْشور ، فلما رآه من الإسلام ، عاد إلى قومه وحضهم على الدخول فيه ، فأسلموا جميعا .

(غزوة بُحْران) - نعى إلى النبی ﷺ أن جمعا من بنى سُلَيم يريدون الإغارة على المدينة ، فخرج إليهم في ثلاثمائة من أصحابه ، فهرب المغيرون .

(سد طريق العراق على تجارة قريش) - لما لم يطق المشركون من أهل مكة صبرا على انقطاع تجارتهم ، حاولوا الاتصال بالشام من طريق العراق تحت قيادة أبى سفيان بن حرب وغيره من صناديدهم ، فأرسل النبي ﷺ كتيبة من جنوده فاستولوا على قافلة التجارة وهرب حماها .

(غزوة أحد) :

عود على بدء - درس عملي في وجوب إطاعة القيادة العليا :

قلنا لما آنس القرشيون أن طرق التجارة استتدت في وجوههم ، لم يبق لهم إلا أحد أمرين : إما الاستماتة في التغلب على المسلمين ، أو الهجرة من مدينتهم والتفرق في الأرض لطلب الرزق ، فآثروا الوجه الأول ، واجتمع نحو ثلاثة آلاف رجل منهم تحت قيادة أبى سفيان بن حرب ، ومعهم الأحابيش حلفاؤهم ^(١) ، وأبو عامر الراهب ومعه عدد ممن على شاكلته . وخرج معهم جماعات من أعراب كنانة وبنو أمية ، وساروا حتى نزلوا مقابل المدينة بذي الحليفة .

فلما بلغ النبي ﷺ خبرهم ، استشار أصحابه في البقاء بالمدينة والدفاع فيها ، أو في الخروج إليهم ؛ فرأى أكثرهم أن الخروج إليهم أمثل ؛ فسار سحرا على رأس

(١) الأحابيش : قوم من قريش وكنانة وخزيمه وخزاعة اجتمعوا في الحبشى (بضم فسكون فكسر) وهو جبل بأسفل مكة ، وتحالفوا على التناصر والتعاون .

ألف رجل حتى إذا بلغ (الشَّوْط) ، وهو بستان بين أحد والمدينة ، نكص عبد الله ابن أبي شيخ المنافقين على عقبيه ، ونكص معه ثلاثمائة ممن هم على شاكلته .

فلما رأت طائفتان من المؤمنين ممن كانوا قريبي عهد الإسلام تحاذل هذه الجماعة ، تولاهما الحَوْر ، وكادتا أن تنحوا نحوهما ، فعصمهما الله من ذلك . وفي ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) .

وتحدث بعض المسلمين في وجوب قتال المنخضلين ، فأُنزل الله في ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَافِقِينَ فِتْنَةٍ (أى ما لكم اترقبتم في أمرهم إلى رأيين) ، وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ ^(٢) فتركوهم .

ثم ساروا حتى نزلوا الشَّعْب من أُحُد ، وهو جبل في الشمال الشرق من المدينة ، جاعلين ظهورهم إلى الجبل ووجوههم إلى المدينة ، ونزل المشركون بطن الوادى ، وكان على ميمتهم خالد بن الوليد (وكان لم يسلم بعد) ، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية . واستحضر الرماة وكان عددهم خمسين فجعلهم خلف الجيش على ظهر الجبل ، وأمرهم أن لا يبرحوا مكانهم سواء أكان المسلمون متصرين أم منهزمين . فابتدأ القتال بالمبارزات الفردية على عادة العرب ، ثم حلت خيالة المشركين ثلاث مرات وفي كل مرة يرتدون على أعقابهم ، بسبب ما يصيبهم من النبال ، ثم التقت المشاة وحى الوطيس ، وكان نساء المشركين ينشدن الأناشيد يحمسن الرجال ، فلم تجدهم حماسهم نفعا ، لأن المسلمين على قلة عددهم صبروا لهم صبر الكرام ، وما هى إلا ساعة حتى شعر المشركون بالخور وولوا الأدبار ، ونساؤهم يكيكن ويولولن ، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب .

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٢٢) .

(٢) سورة النساء ، الآية (٨٨) .

فلما رأى الرماة الذين وضعهم النبي ﷺ لحماية ظهور المسلمين ما آلت إليه الحال من النصر ، مالوا إلى النزول ، فقال لهم رئيسهم عبد الله بن جبير : إن في ذلك مخالفة لأمر الرسول ؛ فعصوه ونزل أكثرهم ، وبقي هو وقليل من المشركين . فلما آنس خالد بن الوليد زوال هذه العقبة أسرع إلى الذين بقوا فوق الجبل فقتلهم جميعا وأتى المسلمين من ورائهم ، فلما رأوا ذلك اختل نظامهم ودهشوا حتى صار بعضهم يضرب بعضا ؛ وقتل رجل حامل لواء المسلمين وأشاع أن محمدا قتل ، فتسرب الفشل عند ذاك إلى قلوب المؤمنين ، وانقسموا إلى طائفتين .

قالت أولاهما : إذا كان محمد قد قتل فعلام نقاتل ؟ فلنرجع إلى أهلنا .

وقالت ثانيتهما : إذا كان محمد قد قتل فلا خير بعده فلنقاتل في سبيل ديننا حتى نقتل .

أما النبي ﷺ فقد ثبت مكانه ، وكان بين يديه أبو طلحة الأنصاري ، وكان مناضلا مسدد الرماية ، فنثر كنياته وهو يقول : وجهي لوجهك فداء ! وكان كلما مر برسول الله رجل قال له انثر كنياتك لأبي طلحة . وعاونوه سعد بن أبي وقاص وسهل بن حنيف ، وقام أمام النبي أبو دجانة سيماء بن خُرشة جاعلا نفسه مثيرا له وهو مُتَحَنٍّ عليه ، فكان نبيل المشركين يقع على ظهره ، وكان يدفع الناس عنه زيادة بن الحارث حتى وقع صريعا دونه . وقصد رسول الله أبي بن خلف من المشركين يريد قتله ، فلما قرب منه ضربه ضربة كانت سبب هلاكه .

وكان أبو عامر الراهب قد حفر حُفْرًا وغطاها ليقع فيها المسلمون ، فوقع النبي في واحدة منها فأغمى عليه ، وخدشت ركبته ، فأخذ على يده ، ورفع طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما ، فرماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رِباعيته (وهي السن التي بين الثانية والثاب) ، فهجم على عتبة حاطب بن أبي بلتعة فقتله ؛ وتصدى له عبد الله بن شهاب من المشركين فشجَّ وجهه ؛ وجرحته وجنتاه بسبب دخول حَلَقَتِي المَغْفَر فهما من ضربة وجهها إليه ابن قَيْمَةَ من الجاهليين . وجاء أبو عبيدة فعالجهما ليخرجهما فكسرت بسبب ذلك ثنيتاه . وسار النبي وبين يديه بعض أصحابه يريد الشعب ، فلما انتهى إليه أقبلت إليه ابنته فاطمة وأخذت تغسل وجهه وتضمده .

قتل في هذه الواقعة من المسلمين نيف وسبعون ، منهم عم النبي حمزة . وكان أكثرهم جراحة المنافحون عن النبي ﷺ ، فأصاب طلحة أكثر من سبعين جرحا ، وشلت يده .

ومثل المشركون بقتلى المسلمين ، حتى إن هنذا زوج أبا سفیان شقت بطن حمزة وأخرجت كبده لتأكلها فلم تستطع ازدراد شيء منها بعد أن لاكت قطعة منها بين أسناتها .

ثم إن أبا سفیان قائد جيش المشركين صعد الجبل ونادى بأعلى صوته : نعمت فعّال ، يوم يوم بدر ، وموعدكم بدر العام المقبل . ثم قال : إنكم ستجدون في قتلاكم مثلة لم أمر بها ولم تسؤنى .

ثم قفل المشركون راجعين إلى مكة .

ما يجب أن يستخرج من العبر من هذه الواقعة :

إن هذه الواقعة في عرف رجال الحرب تعتبر أنها أفضت إلى هزيمة المسلمين ، ولكن المتأمل فيها لا يجدها تشبه الهزائم في شيء . فإن المعهود في الهزائم أنها تقتضي أن يولى المهزوم الأدهار ، وأن يتعقبه خصمه الظافر يقتل بعض جنوده ويأسر بعضا آخر ، ويستولى على جميع معسكره . فإذا كان يريد أن يفرغ من خصمه نهائيا ، كما كانت نية المشركين من قبل ، تبع العدو المنتصر المهزمين إلى مقر تجمعهم ، سواء أكان ذلك معقلا أم مدينة ، واستولى عليه وأقام فيه حامية لينجع عودهم إلى معاكسته .

ولكن الذي آتسناه عقب هذه الواقعة ، أن المشركين بعد أن انتصروا على المسلمين لم يتعقبوا فلولهم ، ولم يحتلوا مدينتهم ، بل لم يعملوا على أسر النبي وهو رأس هذه الحركة القائمة ضدهم ، وعاد من ميدان المعركة على مهل ، ثم لم يعجله شيء عن إصلاح شأنه وغسل جراحه . ومن أغرب ما يلاحظ أن قائد المشركين صعد الجبل وخاطب المسلمين وهم على مسمع منه ، وواعدهم العام المقبل ، كأن الفريقين كانوا في مباراة رياضية ، لا في وقعة حربية ! ولم يعهد مثل هذا قط في تاريخ الحروب وخاصة القديمة ، إذ كانت إلى التفاني الحيواني أقرب منها إلى التنازع الإنساني .

ولا يمكن أن يقال إن جيش المشركين كان خلوا من وسائل المطاردة ، فقد كان فيهم مائتا خيال تحت إمرة أمهر قادة الحرب في الجاهلية ، خالد بن الوليد ، وقد كان في وسعه على الأقل أن يحيط النبي ﷺ بخيالته فيمنعه الرجوع إلى المدينة . وقد ثبت أن النبي لم يعد من ساحة القتال في أكثر من بضعة عشر رجلا وأربع عشرة امرأة ! فأى عون من الله لنبيه أظهر من هذا في مثل هذه المحنة ؟

وقد تبين المشركون بعد أن بعدوا عن المدينة ، أنهم ارتكبوا خطأ فاحشا في ترك المسلمين وشأنهم ، إذ قال بعضهم لبعض : أى شيء فعلتم ، لا محمدا قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بشس ما صنعتم ! ارجعوا .

فبلغ النبي ﷺ ذلك ، فخرج إليهم في عسكره ولحق بهم . فلما رأى المشركون ذلك ، وقد ذاقوا استيأسهم في الحرب ، خشوا أن تلور الدائرة عليهم ، فانصرفوا .

لا جرم أن هذا من أعجب ما يحفظه تاريخ التنازع بين الحق والباطل . وقد رأينا أن سبب هذه الهزيمة كان عصيان الرماة للأمر الذي صدر إليهم من رسول الله ﷺ . وقد ذكر الله ذلك في كتابه فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تُحْسِنُونَ كِتَابَتِهِمْ (أى تقتلونهم) ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَأَكُمْ مَا تُحِبُّونَ (جواب الشرط محذوف هنا تقديره : عاقبكم بالهزيمة) ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) (٢) .

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٥٢) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء التاسع ، رمضان سنة ١٣٥٩ هـ .

مُناوشات غير خطيرة قبل المعركة الفاصلة ؛ وقعة الأحزاب

سرية أبي سلمة :

أهلت السنة الرابعة فيبلغ النبي ﷺ أن طليحة وسلمة ابني خويلد الأسديين ، يؤلبان قومهما لحربه ، فاستدعى رسول الله أحد أصحابه أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وأمره أن يسير حتى يطاء أرض بني أسد بن خزيمه ويغير عليهم ، وأمر أن تسير معه كتيبة ، فسار في المحرم حتى بلغ جبلا لهؤلاء القوم يقال له قَطَن ، فشن عليهم الغارة فهربوا من بيوتهم ، واستاق أبو سلمة ما صادفه من إبل وغنم .

سرية عاصم بن ثابت :

في صفر من السنة الرابعة قدم على رسول الله ﷺ رجال من بني عَضَل والقارة ، وهما قبيلتان من بني الهون ، وطلبوا إليه أن يرسل معهم من يفقه قومهم في الدين ، فأرسل معهم ستة من أصحابه تحت إمرة عاصم بن ثابت . وكان هؤلاء الرجال غير صادقين في دعواهم ، بل مأجورين لبني لحيان الذين قتل المسلمون منهم أحد رجالهم ، سفيان بن خالد ، فأرادوا أن يرزعوا المسلمين بقتل رجال منهم أخذوا بالثأر .

فلما بلغت السرية الرجيع ، وهي ماء بين مكة والمدينة ، أحسّوا بالغدر ، وخرج نحو مائتين من بني هذيل في طلبهم ، فاضطر رجال السرية للجوء إلى جبل هناك والاستعداد للمقاومة . فطلب إليهم بنو هذيل أن ينزلوا ولهم الأمان ، فاغتر بعهدهم ثلاثة رجال ، فلما صاروا في أيديهم قتلوا أحدهم لمقاومته لهم بعد أن شعر منهم بالغدر ، وباعوا الاثنين بمكة لمن يريد أن يثأر لقتلاه من أهل مكة ، وهنالك قتلوا .

سرية بئر معونة :

في صفر من السنة الرابعة وفد على النبي ﷺ أبو عامر بن مالك من صناديد

بنى عامر ، وكان يدعى لبطلته ملاعب الأُسنة ، فدعاه رسول الله للإسلام ، فلم يذعن ولكنه لم يبعد . وقال للنبي : إني أرى أمرك هذا حسنا ، فلو بعثت معي رجالا إلى أهل نجد فإني أتوقع أن يستجيبوا لهم .

فقال له النبي ﷺ : إني أخشى عليهم أهل نجد .

فقال ملاعب الأُسنة : أنا لهم جاز .

فأرسل رسول الله لهم المنذر بن عمرو في سبعين من أصحابه اشتهروا بالإكثار من حفظ القرآن حتى أطلق الناس عليهم لقب القُرَاء ، فساروا جميعا حتى نزلوا بئر معونة ، ومنها بعثوا أحدهم ، حَرَامَ بْنِ مِلْحَانَ ، بكتابٍ إلى عامر بن الطفيل سيد بني عامر . فلما وصل إليه لم يلتفت إلى الكتاب ، ولكنه ثار على مقدمه وقتله ، ثم استثار قومه على بقية إخوانه ، فلم يقبل بنو عامر أن يحضروا ذمة ملاعب الأُسنة ، فاستصرخ عامر بن الطفيل عليهم بنى رَعْلَ وَذَكْوَانَ وَغُصَيَّةَ ، وهى قبائل من بنى سليم ، فأجابوه وذهبوا معه حتى التقوا بأصحاب رسول الله فقاتلوهم قتالا عنيفا حتى أتوا عليهم جميعا إلا رجلين ، أحدهما كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظن أنه منهم فنجوا ، وعمرو بن أمية وكان على سرح للقوم ، أى مع حيوانات سائمة لهم ، فخلص من القتل .

فلما بلغ النبي ﷺ أمر هذه المجزرة الشيعة حزن حزنا شديدا .

عزوة بنى النضير :

بنو النضير يهود كبنى قينقاع الذين قبلوا ظهور الحق للمسلمين فاضطروهم للجلاء عن حصونهم والهجرة إلى الشام . وهؤلاء جروا على سنة سابقهم فحدثتهم أنفسهم أن يغتالوا النبي ﷺ . وذلك أنه بينما كان مع بعض صحابته في ديار بنى النضير ، تأمر رجال منهم إلى إلقاء صخرة عليه من مكان عال ، رغما عما كان بينه وبين هؤلاء القوم من عهد عدم الاعتداء ، فلما تبين رسول الله قصدهم رجع إلى المدينة وأرسل محمد بن مسلمة يكلفهم الجلاء عن بلاد العرب إلى حيث يشاءون .

فتبأ القوم للرحيل علما منهم أنهم لا يقولون على حرب المسلمين ، فارسل إليهم منافقو المدينة من يخبرهم بأنهم يساعدونهم لو وقع عليهم عدوان ، وأنهم وإياهم متكافلون في الحياة ، وقد حكى القرآن الكريم ما قالوه في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، لَئِنْ أَخْرَجْتُمْ لَتَخْرُجُنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أَخْرَجُوا لَا تَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولُنَّ الْأُذُنَآءَ ثُمَّ لَا يَتَصَرَّوْنَ . لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوْنَ . لَا يَخَافُوكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ، بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ . كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ ، فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) .

ولكن بنى النضير اطمأنوا إلى هذا الوعد ، وتلكأوا عن الجلاء ، فأمر النبي ﷺ بالنسيئة ، فلما اجتمع العدد المطلوب خرج بهم . فلما بلغ بنى النضير خبر خروجه دخلوا إلى حصونهم وامتنعوا فيها ، منتظرين ما يقوم به المنافقون الذين غرروا بهم تحت إمرة زعيمهم عبد الله بن أبي ، فلم يمدوا إليهم يدا بمساعدة كما لم يفعل مع بنى قينقاع من قبلهم .

فطلبوا إلى رسول الله أن يقوموا بما تعهدوا به من الجلاء ، آخذين معهم ما تحمله الإبل من الأموال إلا آلة الحرب . فقبل ما اقترحوه وخرجوا . فمنهم من نزلوا بخير ، ومنهم من هاجروا إلى الشام ، وأسلم منهم اثنان .

غزوة ذات الرقاع :

بلغ النبي ﷺ أن قبيلتين من قبائل نجد ، وهما بنو مُحَارِب وبنو ثَعْلَبَة ، تبيتان لحربه . فجرد من صحابته سبعمائة مقاتل وخرج بهم لملاقاة عدوهم . وما زالوا

سائرين حتى وصلوا ديار القوم ، فلم يجدوا بها رجالا . ذلك أنهم لما بلغهم قدوم جيش المسلمين لاذوا بقتن الجبال ، ثم تشجع بعضهم ونزلوا للقتال . فلما اقترب الجمعان اعتراهم الرعب وولوا الأدبار .

غزوة بدر التي أوعدها أبو سفيان :

قلنا عندما انتهينا من إيراد تفصيلات وقعة أخذ أن أبا سفيان واعد المسلمين اللقاء في بدر من العام المقبل ، وقبل النبي ﷺ تحديه . ولكن أبا سفيان لم يستطع أن يوفى بوعده ، وخشى أن يُتهم بالتكول فعمد إلى الحيلة . فكان ما حاكه منها أنه استأجر رجلا يقال له نُعَيْم بن مسعود الأشجعي ليأتى المدينة ويرجف بما جمعه أبو سفيان من الجنود الكثيرة ، ليكسر من حدة المسلمين ، وينال من قواهم النفسية . فلم يبالوا بأقوال نعيم ، وخرجوا ألفا وخمسمائة تحت قيادة النبي ﷺ ، وما زالوا يسيرون حتى أتوا بدرا فلم يجدوا بها أحدا . لأن أبا سفيان بعد أن وصل بمن معه إلى بدر وأرسل الرجل الذي استأجره للإرجاف ، ظن أن إرجافه سيفيد الفائدة المرجوة منه . فقال لقومه إن هذا عام مجذب ، ولا يصلح للقتال غير عام مُغْشَب ، هلموا للرجوع . وكان قد خرج بهم على هذه النية ليرى الناس أن قريشا وفدت بتحديها وأن المسلمين هم الذين نكصوا على أعقابهم خوفا منهم .

أما المسلمون فلما قدموا بدرا أقاموا بها يتجرون في سوقها الذي كان يعتقد مرة في شعبان من كل سنة ، فأصابوا خيرا كثيرا ، وسجلوا على أعدائهم الخذلان .

وقد حكى الله هذه الحادثة في الكتاب الكريم فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْهَا (في وقعة أحد) ، قُلْتُمْ : أِنَّا هَذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، إِنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ، وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ يَكْفُرُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ . الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا

قِيلُوا ، قُلْ فَأَذَرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرَجِحْ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَشِيرُونَ بِالَّذِينَ تَمْ يُنَحِّقُوا بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ، الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ . إِنَّمَا ذِكُّكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ، يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ خَطَأً فِي الْآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُثَلِّى لَهُمْ لِيُزِدَاؤُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطَاعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿ ١ 〉 .

غزوة دومة الجندل :

كانت هذه الغزوة في ربيع الأول من العام الخامس للهجرة . وسببها أن النبي ﷺ بلغه أن الأعراب اجتمعوا بدومة الجندل يقطعون الطريق على من مر بهم ، وأنهم يريدون الدنو من المدينة وكان بينهم وبينها خمس عشرة ليلة . فأمر رسول الله ﷺ بتعبئة ألف مقاتل من جنوده وخرج بهم لفض جماعة أولئك المفسدين . فلما قرب منهم وبلغهم الخبر تفرقوا ، فاستاق المسلمون ما شئهم ورعاهم . وبث النبي ﷺ كتابه إلى كل وجه فلم يجد منهم أحدا ، وكفى الله المؤمنين القتال .

غزوة بنى المصطلق :

بنو المُصْطَلِق بطن من حُرَاعة ، وتسمى هذه الغزوة غزوة المُرَيْمِيع أيضا ، وهو ماء لتلك القبيلة .

سبب هذه الغزوة أنه بلغ النبي ﷺ أن الحارث بن ضِرَار سيد بنى المصطلق يحشد الجنود لمحاربتة ، فاستعد للقاءه وندب الناس للقتال ، فلبّاه عدد كبير ، وكان منهم جمهور غفير من المنافقين ، خرجوا طلبا للغنيمة . فلما نعى خبر قدوم النبي بجيشه إلى ديار بنى المصطلق أدركهم الرعب حتى تخاذل رجال منهم وتركوا معسكرهم . ولما وصل جيش المسلمين إليه ترامى الفريقان بالنبل ، ثم هجم المسلمون عليهم وقتلوا منهم عشرة وأسروا سائرهم حتى نساءهم وذريتهم ، واستولوا على ماشيتهم وكانت ألفى بعير وخمسة آلاف شاة .

وكان بين الأسرى برة بنت الحارث سيد بنى المصطلق ، فتزوجها النبي ﷺ ، فلما رأى أصحابه أن بنى المصطلق صاروا أصهارا لرسول الله ردّوا ما أخذوه من أموالهم من الغنائم ، وأطلقوا الأسرى أيضا ، لأنهم رأوا أنه لا يصح أن يؤسر من يمت إلى نبيهم بسبب . فقالت عائشة رضی الله عنها : « ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جُؤَيْرِيَّة » ، تريد برة بنت الحارث وقد غيّر النبي ﷺ اسمها . وقيل إن جويرية هي التي طلبت إلى النبي ليلة زفافها إليه أن يطلق سراح الأسرى من قومها ، فأطلقهم . فكان أثر هذه المكرمة عظيما في بنى المصطلق إلى حد أن حملهم على الإسلام على بكرة أبيهم .

نار فتنة ما شئت حتى محمدت :

شبت نار فتنة بين المهاجرين من أصحاب النبي وبين أهل المدينة ، فلولا حكمة الرسول ، ورسوخ الإيمان في قلوب المسلمين ، لأدت إلى انفصام وحدة المسلمين . ذلك أن عبد الله بن أبي زعيم المنافقين شهد مع شيعة هذه الغزوة طمعا في غنائمها . واتفق أن أجيرا لعمر بن الخطاب خاصم حليفا للخزرج ، فضرب أوصاها الثاني وأسأل دمه . فصاح الحليف (يا للخزرج) وصاح الأجير (يا للمهاجرين) ، فأقبل إليهما رجال من الفريقين كادوا يقتتلون ، لولا أن خرج إليهم رسول الله قائلا :

ما بال دعوى الجاهلية ؟ فأخبره بالأمر . فقال : دعوا هذه الكلمة فإنهما مُتَّبِعَةٌ ، ثم حقق القضية فلم يجد للمضروب حقا ، فوقف الأمر عند هذا الحد .

ولكن شيخ المنافيين أراد أن لا تفوته هذه الفرصة . فكلّم بنى الخرج قائلا : « ما رأيتم كالسيوم مذلة ، أو قد فعلوها ، نافرنا في ديارنا ، والله ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول : سَمَنَ كَلْبِكَ بِأَكْلك . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل . ثم التفت إلى من معه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتهمهم بلادكم ، وقاستهمهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم أيديكم ، لتحولوا إلى غير دياركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم ، حتى جعلتم أنفسكم غرضا للمنايا دون محمد ، فأيتتم أولادكم ، وقلتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده » .

فلما بلغ هذا الكلام النبى ﷺ غضب وتغير وجهه ، فقال عمر : مرئى أو مر غيرى يقتله يا رسول الله ، فلم يقبل منه هذا رأى ، وأمر جيشه بالعود إلى المدينة ، وبينما هم ببعض الطريق نزلت سورة المنافقين وفيها القضاء عليهم ، وهى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ، اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ، كَانَتْهُمْ حُشْبٌ مَّنْثَدَّةٌ ، يُحْسِبُونَ كُلَّ صِغَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَمَّا يُؤَفِّكُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ، وَاللَّهُ خَرَّائِلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِنْ رُجِعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ، لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنهَا الْأَذَلَّ ، وَاللَّهُ الْبَعُزُّ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي

إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأُصَدِّقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ،
وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١﴾ .

لا يجوز لنا أن نختتم هذه المقالة حتى ننبه القارئ إلى العلو الخلقى ، والسمو
الفكرى اللذين ظهر عليهما النبي ﷺ حيال إرجاف شيخ المنافقين عبد الله بن أبي .
فقد كان في استطاعته قتله وقتل كل من يلف لَفَّهُ من منافقى المدينة ، فقد كان
الحاكم المطلق في المدينة وضواحيها . وقد اضطر بعض المشركين ومنهم عبد الله بن
أبي المذكور لإظهار الإسلام نفاقا ، والعمل سرا على حل جماعة المسلمين . ولو
كان النبي قتل زعيم المنافقين لقال الناس إن محمدا استخدم القوة الغاشمة في بث
دعوته ، فلو تركها عرضة للنقد والتقدير لا نخلت وبطل أمرها من قريب . فكان
في تركه وترك أمثاله ، ومقارعتهم بالحجج البينة ما يدفع هذه الشبهة عن الإسلام ،
ويثبت بدليل محسوس أنه تأسس على الحقائق الثابتة ، وقام على قاعدة النظر
والتمحيص ، وقد انتشر انتشارا لم يعهد له مثيل في تاريخ العقلية الإنسانية لهذا السبب
نفسه (*) .

★ ★ ★

(١) سورة المنافقون ، الآيات (١ - ١١) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء العاشر ، شوال سنة ١٣٥٩ هـ .

المعركة الفاصلة بين المسلمين والمشركين وقعة الأحزاب

إن الحالة القبلية التي كان عليها العرب لم تكن لتسمح لهم أن يجمعوا على أمر يقومون به مجتمعين ، وإن كان له أكبر تعلق بهم كافة . ولم يكونوا من الناحية الدينية أيضا على شيء مما يدفع غيرهم إلى التكافل للذود عن عقائدهم الموروثة ، فلم يكثرثوا لظهور دين جديد يعيب عليهم وثيبتهم ، ويحقر آلهتهم ، ويتوعددهم بالهلاك وسوء المنقلب . هذه الحالة تكشف عن مبلغ التفكك الذي كانوا عليه ، وعن محمود العاطفة الدينية فيهم . فإذا كانت قريش قد تحركت لمكافحة المسلمين في دار هجرتهم مرتين قبل هذه ، فإن ذلك منها كان يرجع إلى عوامل اقتصادية ، لإزالة العقبة التي أقامها المسلمون في طريقهم إلى الشام . ولولا ذلك لما حدث أحد في قريش نفسه لغزو المسلمين في يثرب .

ولكن اليهود الذين نزلوا بين أظهرهم مهاجرين منذ أجيال ، وتعلموا لغتهم ، وتسموا بمثل أسائهم ، كانوا على غرار إخوانهم في جميع بقاع الأرض ، يعرفون الوحدة الاجتماعية ، والجامعة الدينية ، ويدركون ما ينتهي على انتشار دين بين المقاصد والغاية في البلاد العربية ، من الوحدة الاجتماعية والسياسية ؛ وهم مع كفرهم بهذا الدين كانوا يرون فيه خطرا على وجودهم هنالك ، وكانوا يظنون أن المسيحين إذا كانوا على ما أمروا به من الرحمة والعطف ، يبالغون في اضطهادهم ، فلا يعقل أن يجيء أهل دين يكونون أرق قلبا منهم ؛ لذلك هالهم أن يستتب الأمر للإسلام في دار هجرته الجديدة ، فلا يلبث أن تصبح له دولة وصوله ، فيجدوا أنفسهم مضطرين للهجرة ، وإلى أين هذه المرة ، وليس في المعمور من يرحب بقادم عليهم من أهل ملة غير ملتهم ؟ حملهم هذا كله أن ينتدب جماعة من عليتهم ، منهم سلام بن مشكم وابن أبي الحقيق وخي بن أخطب ، خرجوا من خير وقدما على قريش في السنة الخامسة من الهجرة ، وأخذوا يحسثون لهم أن يؤلبوا العرب على حرب محمد وجماعته ، حتى يستأصوهم أو يفرقوا وحدتهم ، ويطلبوا دعوتهم ، خشية أن تصبح لهم دولة فلا يكون لهم ولا لغيرهم محيص عن الخضوع له ، والدخول في دينه ،

وهو ما قد لا يرضاه منهم . وما زال هذا الوفد يحسنون لقريش هذا الأمر ويُسَوِّلونه لهم حتى زعموا أن ما عليه المشركون من الدين خير من الإسلام الذى يدعو إليه محمد . وكبير من أمة موحدة أن تداهن أمة وثنية إلى هذا الحد الشائن ؛ وقد سجل الكتاب الكريم هذا الخزى عليهم بقوله تعالى : **هُوَ الَّذِي تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نُصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَالطَّاعُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿١﴾** . فسر المشركون من هذه الشهادة وقبلوا دعوتهم ، لا لأنهم يأبسون بالدين ، ولكن ليتخلصوا من عدو منع عنهم الثقل في البلاد ، وتلمس الرزق منها .

ثم جاء هذا الوفد بنى غطفان وكلموهم في غزو المسلمين ، وما كان ليهمهم هم أيضا أمر الدين ، ولكنهم رشوهم بمحصول عمر خير سنة ، فقبلوا دعوتهم . فخرجت قريش وغطفان ومعهما حلفاؤهما ، فكانت عدة الأولين أربعة آلاف معهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير ، ولاقتهم بنو سليم وعددهم سبعمائة ، تحت قيادة سفيان بن عبد شمس ، وتبعهم بنو أسد تحت قيادة طليحة بن خويلد . وخرجت غطفان تحت قيادة عُيَيْنَةَ بن حصن ، وبنو مرة تحت إمرة الحارث بن عوف ، وبنو أشجع تحت زعامة مِسْعَر بن رُحَيْلَةَ ، وخرج من يتصل بهم من القبائل حتى بلغ عددهم عشرة آلاف ، وقبل هؤلاء المتحالفون أن يكونوا جميعا تحت قيادة أئى سفيان بن حرب سيد قريش وقائدها المختك .

لما بلغ النبي ﷺ خبر خروج هذا الجيش ، ندب أصحابه للجهاد ، فكان عددهم ثلاثة آلاف ومعهم ست وثلاثون فرسا .

وبينا هم ينتظرون قدوم المشركين أشار سلمان الفارسي رضى الله عنه النبي ﷺ ، أن يتقى المغيرين عليه بخندق على عادة قومه . فقبل النبي هذه المشورة وأمر بعمله ، وساهم بنفسه في حفره ، ورفع التراب على عاتقه . وامتنع أكثر المنافقين عن العمل . وكان سلمان يعمل عمل بضعة أشخاص ، مدفوعا بشدة إيمانه . فتنافس

فيه الصحابة ، فقال الأنصار : سلمان منا ، وقال المهاجرون : بل هو منا . فقال النبي ﷺ : « سلمان منا آل البيت » .

ولما أقبلت القبائل المتحالفة ذهب حبي بن أخطب اليهودى إلى سعد بن أسد القرظى سيد بنى قريظة من اليهود المخالفين للمسلمين ، وما زال به حتى أغراه على نقض عهده والانضمام إلى القبائل المتحالفة ، ولكنه ما عثم أن رجع عما قاله ولم ينضم إلى المغيرين .

وخرج المسلمون من المدينة في ثلاثة آلاف تحت قيادة النبي ﷺ ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع وعسكروا إزاء المشركين وبينهم الخندق . وعظم البلاء على المسلمين ، وجاهر المنافقون بما تكنه صدورهم ؛ وقد حكى الله ذلك عنهم فقال : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (١) ، وقالوا : « يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا » وقالوا : « إِنْ يَبُوءُتُنَا غَوْرَةً (أى غير حصينة) » (٢) ، واستأذنوا في الرجوع ليحموها . وقال مُعْتَبَرُ بْنُ قُشَيْرٍ ، وكان منهم : كان محمد يرى أن تأكل من كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط .

عند ذاك رأى النبي ﷺ أن يحاول فُصْمَ جماعتهم بما يؤثر على أنفسهم من متاع الدنيا ، فبعث إلى عيينة بن حصن الفزارى قائد بنى غطفان ، وإلى الحرث ابن عوف المرى قائد بنى مرة ، أن يرجعا عن قتاله ولهما ثلث ثمار المدينة . ولكنه أراد قبل أن يبت في الأمر أن يستشير زعيميهما الكبيرين : سعد بن معاذ وسعد بن عباد ، فطابهما ، ولما حضرا استشارهما في ذلك . فقالا يا رسول الله هذا أمر تحبه فتصنعه ، أم شيء أمرك الله به ، أم شيء تصنعه لنا ؟ فإن كان أمرا من السماء فامض له ، وإن كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه هوى ، فسمعا وطاعة ، وإن كان هو الرأى ، فما لهم عندنا إلا السيف ، فقال رسول الله : لو أمرنى الله ما شاورتكما ،

(١) سورة الأحزاب ، الآية (١٢) .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية (١٣) ، وتامها :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ .

والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما ، وأبطل ما عزموا عليه .

لما قدم جيش القبائل المتحالفة ، نزلت قريش بمجتمع السيول بين مكانين حيال المدينة يسميان بالجرف والغابة ، هم ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة ، ونزلت غطفان ومن تبعها من أهل نجد إلى جنب جبل أحد .

أما جنود المسلمين فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع ، كما قدمنا ، والخذق بينهم وبين القوم .

ولما تصافف الفريقان للقتال ، أقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له ينظر من أى ناحية يقتحم الخندق ، فهوى فيه واندقت عنقه ، فعظم ذلك على المشركين وطلبوا إلى رسول الله أن يسلمهم جثته ليدفنوه ويدفعون إليه عشرة آلاف درهم ، فسلمه إليهم ليدفنوه ولم يقبل الدية .

وقف المشركون دون الخندق حائرين لا يدرون ماذا يعملون لاقتحامه ، وكان كبار قادتهم يتناوبون عليه ، فكان أبو سفيان يغدو إليه يوما ، وخالد بن الوليد يوما ، وعمر بن العاص يوما ، ولم يكونوا قد أسلموا بعد ، ويغدو غيرهم كذلك ، يحيلون خيلهم يفترقون مرة ويجمعون أخرى ، يناوشون المسلمين ويناضلونهم بالنبل .

وبينا الجيشان على تلك الحال ، والمسلمون في قلتهم مستسلمون لقبول ما قُدر عليهم ، مع ترابطهم ترابطا لا تفصم له عروة ، إذ هبت ريح صفراء عصفت بالمعسكرين معا ، واشتد البرد والظلام ، حتى اضطر أكثر المسلمين إلى اللجأ إلى دورهم خشية الهلاك ، ولم يبق مع النبي ﷺ في ميدان القتال غير ثلاثمائة ، ولم يقتصر أمر هذه الرياح على ما أثارته من الرمال ، وما أحدثته من برد قارس ، ولكنها ما لبثت أن اشتد هبوبها حتى قلعت الأوتاد ، وأطفأت النيران ، وألقت الخيام وأكفأت القدور ، وسفت التراب ، وأثارت الحصباء ، فرأى المشركون أن المقام على هذه الحالة متعذر ، وخاصة بعد أن أقاموا إزاء الخندق أسبوعين ، وقيل أربعة وعشرين يوما ، وقيل شهرا ، لم يجدوا وسيلة لاقتحامه ، فقرروا العدول عن هذه الغارة ، وأول من أعلن ذلك قائدهم أبو سفيان إذ قال :

« يا معشر قريش والله إنكم لستم بدار مقام ، وقد هلك الكراع والخف ، وأخلفنا بنو قريظة (وكانت امتعت عن الانضمام إليهم) ، ولقينا من هذه الريح ماترون ، فارتحلوا فإني مرتحل » . وأخذ بزمام بعيره يقوده ويقول للناس : ارحلوا ارحلوا ! فجعلوا يرحلون حتى لم يبق منهم أحد ، ونجى الله المؤمنين من غائلة المشركين ، وكانت هذه الغارة خاتمة محاولاتهم الشريرة التي رموا بها إلى إطفاء نور الله فأبى الله إلا أن يتم نوره .

وقد ذكر الله هذه الغارة في سورة الأحزاب من كتابه الكريم ، وذكر فيها من أحوال المنافقين ودسائسهم ما فيه معتبر . قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتِ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ، وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّوْا بِهَا إِلَّا سِيرًا . وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الْأَذْيَارَ ، وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مُسَوَّلًا . قُلْ لَنْ يَفْعَلَكَ الْفِرَارُ إِنْ قَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ، وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا . أَشِيعَةُ عَلَيْكُمْ فَأِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَقْرَعُونَ إِلَيْكَ ثُلُورًا أَعْيَاهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ جَدَادٍ ، أَشِيعَةُ عَلَى الْخَبِيرِ ، أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا . لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوءَةٌ حَسَنَةً لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا . وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا

إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . (أى أنهم لما رأوا الأحزاب مقبلين يتوقدون حماسة ، قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله من نزول الشدائد امتحانا لإيمان عباده ، وقد صدق الله ورسوله في أن العاقبة للصَّابرين ، وما زادهم هول ما رأوا إلا إيمانا وتسليما) . مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ۝ (١)

رأينا في هذه الغارة الفاشلة :

الذى تبيناه من النظر في عوامل هذه الغارة وأدوارها عدة أمور :

(أولا) أن قريشاً وسائر العرب كانوا بسبب ما هم عليه من القصور الاجتماعى والدينى قليلى الاكتراث لما يحدث بعيداً عنهم من التطورات لطائفة أخرى ، حتى ما كان منه عائدا بالضرر على معاشهم . وهذا الضعف في الشعور نتج من حالة التفكك التى كانوا عليها ؛ واجتمع كالفرد إن لم يتم تألفه ، وبكمل تشكله ، لا تظهر فيه خصائص الاجتماع ولا حوافظه ، ولولا أن رجلا من اليهود انتدبوا لإهاجة قريش وبعض القبائل المخالفة لهم على الغارة على المسلمين ، لما فعلوا . ولما كانوا قد دُفعوا إليها دفعا بإغراء غيرهم ، فإن ما حدث من ثورة الريح في تلك المنطقة كان كافيا في إرجاعهم عن قصدهم . نعم إن العواصف التى ثارت في سنة (١٥٨٨) على أسطول فيليب الثانى ملك أسبانيا ، أمام شواطئ إنجلترا ، كفت هذه المملكة شره ، وكان أقوى أسطول في العالم ، وقد دُعى (أرمادا) ومعناها الذى لا يقهر ، ولكن كان لحيته سبب مآدى وهو أن تلك العواصف حطمت أكثره على صخور الجزر البريطانية فلم يعد يصلح لعمل ، فعاد ما سلم منه على أسوأ حال . ولكن الريح الباردة التى ثارت على الجيوش المتحالفة لم تحدث من الخسائر المادية ما يقتضى أن يرجعها أدراجها ، وقد دل الكتاب الكريم على ذلك بقوله تعالى :

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهذه الجنود هي العوامل الروحانية التي نفثت الرعب في قلوبهم ، وسولت لهم النكوص على أعقابهم ، فلو كانت تلك الريح تكفى وحدها في تحذلم لما عززها الله بهذه العوامل .

والذى يدل على أن العرب كانوا في قصور بعيد المدى من الناحيتين الاجتماعية والدينية ، أن بنى غطفان قبلوا أن يأخذوا ثلث تمر المدينة ثمنا لخيانة حلفائهم ، مستهينين بالغرض الكبير الذى دعا إلى تألفهم ، وليس هذا بعجيب في حياة القبائل .
(ثانيها) أن إشار الأنصار للدفاع عن حوزتهم بالسيف ، حين استشارهم رسول الله في بث روح التخاذل بين المشركين ، بالتنازل لبعضهم عن ثلث تمر المدينة ، يكشف عن مبلغ استخفافهم بقوة أعدائهم ، واستهانتهم بخاطر جموعهم التى حشدوها لقتالهم ، وهذا لا يكون إلا لتشبع نفوسهم باليقين في التغلب عليهم ، وثقتهم بسعة العقل الذى يتولى قيادتهم .

(ثالثها) أن عدم تخاذلم حيال هذه الجموع الزاخرة التى خفت لقتالهم ، وقلة اكترائهم لإجماع قبائل العرب واليهود على استنكار ما هم عليه ، يبين عن إيمانهم الراسخ بأن ما هم عليه هو الحق ، وأن ما عليه خصومهم هو الباطل ؛ وهو أمر يلفت نظر البيكولوجيين ويحيرهم . فإن الخمس السنين التى قضوها في الإسلام ، وهم من شعب معروف بضعف العاطفة الدينية ، وبعدم التعصب لأى مذهب من المذاهب الفلسفية ، يعتبر من الانقلابات الأدبية التى لم يعهد ما يشبهها في تاريخ النفس الإنسانية . فإن هذه المدة القصيرة لا تكفى لأن تحمل نفوس جماعة قليلة العدد للاستماتة في الدفاع عن عقيدة ، والاستشهاد في سبيلها ؛ لا سيما وهذه الغارة ظهرت فيها الحمية الجاهلية كاشرة عن أنيابها ، معترمة أن تخوض غمرة حرب ماحقة لا رحمة فيها ولا هوادة . فالوقوف حيال هذا التوثب الجنونى لا يشعر بالشجاعة البالغة أقصى حدودها فحسب ، ولكن يشعر بنزعة من التضحية لا توجد إلا في أدوار الانتقالات الذريعة في تاريخ الاجتماع البشرى . فكل متأمل في موقفى هاتين الطائفتين وفي الروحين اللتين تقودهما إلى التناحر ، كان يحكم لأول وهلة أن هذه الطائفة القليلة تضحى بنفسها في سبيل عقيدتها ، فإن قدر لها النصر بورك لها في وجودها ، وثبتت عقيدتها ، وآلت إليها الدولة في نهاية الأمر .

(رابعها) أن ثبات جماعة المسلمين إزاء هذه الكارثة الفادحة ، وهم من بيئات مختلفة ، ومتأثرون بأحقاد قديمة لا تزال صورها حية في نفوسهم ، يدل على مبلغ قوة الرباط الاجتماعي الذي كان يجمعهم . فأهل يثرب كانوا من الأوس والخزرج وهما قبيلتان كانتا في حالة تناحر منذ عشرات من السنين ، وفي حالة نزاع مع القبائل اليهودية التي كانت قريبة منهم ، ومعهم بضع عشرات من أهل مكة آمنوا بالنبي ﷺ ، وهاجروا معه فرارا بدينهم وحياتهم ، ولم يتوقع أهل يثرب ولا أحد ممن كانوا معهم أن يصبحوا في يوم من الأيام هدفا لمجموعة من القبائل يرى بيداهاة العقل أنهم لا يقوون عليها ، أفلا يكون ثباتهم على ترابطهم حيال هذه النازلة دالا دلالة لا تقبل النقض على قوة الرابطة التي كانت تجمع بينهم ، قوة لا توجد وسيلة في الأرض تستطيع أن تحلها أو أن تضعف من استحكامها ؛ وأية وسيلة أفعل من هذه الوسيلة وهي أن تتألب أقوى القبائل العربية عليها ، يقودها قواد مشهورون بسعة الحيل في إدارة المعارك ، وفرسان معروفون بشدة البأس في مجالدة الأبطال ، والصبر على الأهوال ؟

(خامسها) أن اليهود الذين تخيروا البلاد العربية دار هجرتهم ، كان لهم يد قوية في حمل المشركين على التألب على المسلمين حرصا على طمأنينتهم ، وسلامة وجودهم ، ولو كانوا أبعد نظرا لمساعدوا المسلمين على التغلب على الجاهليين ، لأن الإسلام بما جاء به من سعة الصدر ، وحماية الضعفاء ، والوفاء بالعهد ، كان أجدى عليهم من سلطان أهل الشرك . وقد تبين ذلك فيما عاملهم به من العدل والكرم بعد أن دالت له الدولة ، فبدل أن يحفظ عليهم ما قاموا به من التأليب عليه في عهد تكوُّنه ، وصى بالإحسان إليهم والبر بهم ويسائر أهل الكتب السماوية ، فكان وجوده رحمة لهم .

وإننا ننبه إلى هذا هنا تبريرا لما قام به النبي ﷺ بعد هذه الواقعة من إجلاء من بقي منهم عن حصونهم ، دفعا للغوائل التي تتطرق إلى جماعة المسلمين من ناحيتهم ، وهذا حق مشروع لكل جماعة تود أن تنال نصيبها من الوجود ، ما دامت لا تضرر لجماعة سخيمة نفسية ، ولا تصدر فيما تعمله عن العصبية الجاهلية .

(سادسها) لما أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على رسول الله ﷺ

بحفر الخندق ، لم يتردد في الأخذ برأيه ، فأمر بحفره وساعد فيه بنفسه ، فضرب أكمل الأمثال للتعاون الفعلى بين القيادة العليا والجيش ، وهو عمل خطير لم يسبق إليه ، وخطورته تبدو من ناحية أدبية أخرى وهو عدم التورع من الأخذ بما ثبت نفعه ولو نقلا عن المشركين . وهو من ناحية ثالثة يسوغ التجديد بل يحتمه ما دامت حاجة الجماعة تستدعيه . وقد سار أصحاب النبى ﷺ وجميع من جاءوا بعدهم على هذا السمت ، فنقلوا كل ما رأوه من الأمور النافعة فى الجماعات التى احتكوا بها ، ولم يدعوا العلوم والفلسفة حتى ما كان منهما مهجورا فى بطون الكتب الاجنبية ، فكلفوا بها يهودا ونصارى ومجوسا من عرفة اللغات قاموا بترجمتها وإذاعتها ، فكان ذلك سببا فى تخويل المسلمين زعامة العلم والمدنية فى الأرض قرونا طويلة ، وفى الإكبار والإعجاب الذى يحيط به المؤرخون العالميون تاريخهم الحافل بَعْضُهم الأُمُور (*) .

★ ★ ★

غزوات وسرايا

فيما بقي من السنة الخامسة وفي السنة السادسة للهجرة

لما آب النبي ﷺ من غزوة الأحزاب ، وهم أن يخلع لبوس الحرب ، أوحى إليه أن يقاتل بنى قريظة ، وهم من اليهود المجاورين للمدينة ، تأديبا لهم على خيانتهم العهد ، وعلى مآلاتهم للمشركين عندما قدموا لمقاتلة المسلمين . فما وسع النبي ﷺ وقد أمر أن يغزوهم على الفور إلا أن قال لأصحابه : لا يصلين أحدكم العصر إلا في بنى قريظة . فصدعوا بالأمر وخرجوا طالبين ديار بنى قريظة ، وتبعهم رسول الله ، وكانت عدتهم ثلاثة آلاف مقاتل لواؤهم بيد علي بن أبي طالب .

فلما وصلوا إلى أرض بنى قريظة بادروا هؤلاء فاعتصموا بحصونهم ، فحاصروهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة ، قرأوا أن لا مناص من التسليم ، فطلبوا إلى النبي ﷺ أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من ترك السلاح والجللاء بالأموال ، فلم يقبل منهم ذلك فطلبوا أن يجلبوا بأنفسهم تاركين سلاحهم وأموالهم ، فأبى طالبا إليهم أن ينزلوا على حكمه . فرجوه أن يرسل إليهم بأحد رجاله أبا لبابة ، وكان حليفا لهم في الجاهلية ، ليستشروهم . فأرسله إليهم . فلما استشاروه قال لهم : انزلوا ، وأشار إلى حلقة ، يريد أن الحكم الذبيح .

قال أبو لبابة هذا محدثا عن نفسه : « لم أبارح موقفي بعد إفضائي لهم بما قلت حتى أدركت أبا حنت الله ورسوله » . وما كان منه إلا أن رجع من فوره إلى المدينة ولم يقابل النبي ﷺ خجلا منه ، وربط نفسه في سارية من سوارى المسجد ، آخذا على نفسه أن لا يزال موثقا فيها حتى يقضى الله فيه بأمره . وسأل عنه النبي ﷺ فأخبر بما كان منه فقال : أما لو جاءني لاستغفرت له ، أما وقد فعل ما فعل فتركه حتى يقضى الله فيه .

لم يسع بنى قريظة إلا النزول على حكم رسول الله ، فأمر بتكليف الرجال . فجاءه رجال من بنى الأوس حلفائهم في الجاهلية ، وسألوه أن يعاملهم كما عامل إخوانهم بنى قينقاع . فقال لهم : ألا يرضيكم أن نحكم فيهم واحدا منكم ؟ فقالوا نعم ، واختاروا زعيمهم سعد بن معاذ . وأمر النبي ﷺ بإحضاره ، وكان جريحا ، فحمل

على حمار وعُني به جماعة من قومه كانوا طول الطريق يرجونه أن يترفق بهم .
فلما قدم على النبي ﷺ قال له : احكم فيهم يا سعد . فقال : أحكم أن
يقتل رجالهم وتُسي نساؤهم وذريتهم . فنُقذ هذا الحكم فيهم . ولم يبق بعد هؤلاء
جوار للمسلمين من اليهود غير بقية من كبارهم بخير .

أما أبو لبابة الذي أوثق نفسه في سارية المسجد ، فما زال على تلك الحال
حتى نزل فيه قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ
سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(١) ، فحل وثاقه واستراح
قلبه .

(سرية القرطاء) : طائفة من بني بكر كانوا ينزلون بناحية ضريبة وهي
على بعد سبع ليال من المدينة في طريق البصرة . أمر النبي ﷺ محمد بن مسلمة
أن يغير عليهم في ثلاثين مقاتلا . ففعل وقتل منهم عشرة وقيل عشرين ، واستاق
ما كان معهم من الماشية وهي مائة وخمسون بعيرا وثلاثة آلاف شاة .

وأتفق ورجال هذه السرية عائدون ، أن صادفوا ثمامة بن أثال من رجالات
بني حنيفة فأسروه ، وهم لا يعرفون من هو ، وقدموا به على النبي ﷺ . فقال
لأصحابه : أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي ، وأمر به فربط إلى سارية
من سوارى المسجد لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم . ثم أقبل عليه بعد الصلاة
وقال له : ماذا عندك يا ثمامة ؟ قال : خير يا محمد ، إن ثقتل تقتل فا ذم ، وإن
تُنعن تنعم على شاكرك ، وإن كنت تريد مالا فسل تعط منه ما شئت . فتركه حتى
كان الغد . ثم قال له : ما عندك يا ثمامة ؟ فأعاد عليه ما قاله أمس ، فتركه حتى
بعد الغد ، ثم عاد إليه فسأله كما فعل أولا وثانيا . فقال ثمامة : عندي ما قلت لك .
فأمر النبي ﷺ بإطلاق سراحه . فخرج إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم
عاد إلى المسجد معلنا إسلامه ، فبشره النبي بخيرى الدنيا والآخرة . فشخص إلى
مكة ليعتمر . فلما سمعه المشركون ينفي الشريك لله ، قال له قاتل : صابت عن

دينك ؟ فقال : لا ولكنى أسلمت لله رب العالمين مع محمد رسوله ، ولا والله لا تأتیکم من الإمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ . وكان أهل مكة في حاجة إلى استيراد حنطتهم من الإمامة بلد ثمامة ، فخشوا إن هم قتلوه أن يقاطعوهم أهل بلده فتصميم جماعة . ورأوا أن يكتبوا إلى رسول الله أن يأذن لثمامة في عدم حبس حنطة الإمامة عنهم . فكتب إليه النبي أن يخلى بينهم وبين حاجتهم منها . وهذا من الصفات العالية التي تؤثر عنه ﷺ ، فإن قبوله إمداد أعدائه بما يقومهم مع تمكنه من إجماعهم وتضييق الخناق عليهم ، يدل دلالة صريحة على أنه يرى أن للنضال آداباً تجب مراعاتها ، وأن للإنسانية حقوقاً فوق جميع الاعتبارات ينبغي الوفاء بها . وسلاح إجماع الأعداء لتضييق المنادح عليهم مشروعة ، ولكن والحرب قائمة ، أما والسلام ضارب أطنايه ، فلا تصح مهما كانت درجة التوتر في العلاقات بين الفريقين .

غزوة بنى لحیان :

بنو ليحيان قبيل من العرب كانوا قد قتلوا عاصم بن ثابت ورجالاً معه من أصحاب النبي ﷺ ، فلما كان ربيع الأول من السنة السادسة للهجرة منحت فرصة للاقتصاص منهم ، فأمر بعض أصحابه بالاستعداد للحرب ، وخرج في مائتين منهم قاصداً بنى لحیان . فلما بلغهم الخبر تفرقوا في الجبال . فأقام النبي بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يعرفون بأحد منهم ، فرجع إلى المدينة .

غزوة الغابة :

كان لرسول الله ﷺ عشرون لقحة ترعى بالغابة ^(١) فأغار عليها مغير يدعى عينة بن حصن في أربعين راکباً واقتادها . فأبلغ هذا الخبر إلى النبي سلمة بن الأكوع ، وكان غداءً ومن مَهرة الرماة . فأمره أن يتصل بالقوم ويشغلهم بالنبل حتى يلحق بهم . فأدركهم سلمة في الطريق فأخذ يشغلهم بالنبل . فكانوا يركضون خيولهم ليقبضوا عليه فيفوتها ، فإذا كفوا عنه عاد لرميهم ، حتى اضطروهم للإلقاء كثير بما كان معهم من الرماح والأبراد ليخففوا أثقالهم ، فيسهل إفلاتهم من جنود

(١) اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن . والغابة : موضع قريب من المدينة .

المسلمين .

في هذه الأثناء ندب النبي ﷺ بعض أصحابه للخروج معه ، فدفع لواءه للمقداد بن الأسود وأمره بالخروج ولحق به الفرسان ، فأدركوا مؤخرة العدو ، فحدثت مناوشة قتل فيها مسلم ومشركان ، واستنقذ المسلمون أكثر اللقاح ، وهرب أوائل القوم بالبقية .

فطلب سلمة بن الأكوع إلى النبي أن يرسله في جماعة ليدرك الهاريين ويأخذهم على غرة وهم نازلون على أحد مياههم . فقال له ﷺ : « قد ملكك فأنجح » أى قد غلبت فأحسن العفو . ثم رجع بعد خمس ليال .

إحدى عشرة سرية :

(أولاها) - أن بنى أسد كانوا يؤذون من يمر بهم من المسلمين ، فأرسل إليهم النبي ﷺ عكاشة بن مخصن في أربعين راكبا ليقاتلهم . فلما بلغهم الخبر هربوا ، فاستاق المسلمون ما وجدوه من نعم العدو وكانت مائة بعير ، وعادوا بها إلى المدينة .

(ثانيها) - أن النبي ﷺ علم أن المقيمين بذي القصة ^(١) يريدون الإغارة على ماشية المسلمين التي ترعى بالهيفاء ^(٢) فبعث إليهم محمد بن مسلمة في عشرة من المقاتلة . فلما وصلوا كان الليل قد أرخى سدوله ، وكان المشركون قد علموا بخبرهم وكننوا لهم . فلما ناموا أخذ الأعداء يرمونهم بالنبل ، فتواثبوا إلى أسلحتهم ولكن بعد ما فات الوقت ، فقتلوا كلهم إلا قائدهم . فأرسل النبي إليهم أبا عبيدة عامر بن الجراح ليعاقبهم على ما فعلوا . فلما بلغ ديارهم وجدهم قد هربوا ، فاستاق أنعامهم ورجع .

(ثالثها) - أن بنى سليم كانوا يعاكسون الذين تحزبوا مع المسلمين في

(١) ذو القصة : موضع على بعد ٢٤ ميلا من المدينة .

(٢) والهيفاء : موضع آخر قرب المدينة .

غزوة الخندق عندما كانوا يميرون بديارهم . فأرسل النبي ﷺ زيد بن حارثة ليقاتلهم . فلما بلغ أرضهم وجدهم قد فروا . فأخذ المسلمون ما عثروا عليه من أنعامهم وشائهم ، ووجدوا رجالا فأسروهم وعادوا إلى المدينة .

(و رابعها) - أن رسول الله ﷺ نعى إليه أن قافلة تجارية أقبلت من الشام تريد مكة ، فندب لاعتراضها زيد بن حارثة في مائة وسبعين رجلا ، فاستولى عليها وأسر رجالها ، وكان فيهم أبو العاص بن الربيع وهو من رجالات قريش ، زوج زينب بنت النبي ﷺ ، وكانت قد هاجرت إلى المدينة وتركت زوجها هذا مشركا ، فاستجار بها بعد أسره ، فأجارته وأعلنت ذلك . فقال رسول الله : « المسلمون يد واحدة يحير عليهم أديانهم ، وقد أجرنا من أجرته » . ورد على زوجها حرّيته وماله . فرجع إلى مكة ثم عاد إلى المدينة مسلما ، فرد عليه رسول الله زوجته زينب .

وقول النبي ﷺ : « يحير عليهم أديانهم » تقرير لمبدأ المساواة لم يكن معروفا لا عند عرب الجاهلية ، ولا عند اليونانيين ولا الرومانيين ممن بلغوا في القدم درجات عالية في المدنية . فقد كان لا يحير عندهم إلا كبار الرجال ذوو الجاه والمكانة المالية ؛ أما أدنى القوم فقد كان لا يأبه بهم أحد ، بل كان أهل الطبقة الدنيا في المدنية الرومانية يدخلون في حماية السراة ، حتى لا يكونوا عرضة للعدوان وإلا بطش بهم الأقوياء .

(و خامستها) - أن رسول الله ﷺ بلغه أن بنى ثعلبة ، الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة كما أوردناه في تاريخ السرية الثانية هنا ، يقيمون على بعد نحو ستة وثلاثين ميلا من المدينة ، فوجه إليهم زيد بن حارثة في خمسة عشر مقاتلا للثأر منهم ، فهربوا من وجه السرية ، فاستولى المسلمون على أنعامهم وشائهم ورجعوا إلى المدينة .

(و سادستها) - أن النبي ﷺ أرسل زيد بن حارثة ليشن على بنى فزارة غارة عقابا لهم على ما تعرضوا لزيد المذكور وهو آيب من الشام بتجارة وانتهوا ما معه . فقصد القوم في وادى القرى وهو موضع شمال المدينة . فأحاط بالقوم برجاله وقتل منهم رجالا كثيرين .

(و سابعها) - أن النبي ﷺ أرسل عبد الرحمن بن عوف في سبعمائة من المقاتلة ، لدعوة بنى كلب إلى الإسلام ، وكانوا في دومة الجندل ، وهي قرى فيها

حصن على بعد خمس عشرة ليلة من المدينة ، وتقع على بعد خمس ليال من دمشق .
وقبل أن يسير الجيش أوصاهم قائلاً : « اغزوا جميعا في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر
بالله ولا تغلوا^(١) ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، فهذا عهد الله وسيرة
نبيه فيكم » .

فلما حلوا بديار القوم دعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام ، وفي الرابع أسلم رئيس
القوم الأصيغ بن عمرو وكان على النصرانية ، وأسلم معه كثيرون من قومه ، ورضى
الباقون أن يدفعوا الجزية باعتبار أنهم من أهل الكتاب .

(و ثامنتها) - أن رسول الله أرسل على بن أبي طالب في مائة مقاتل لمحاربة
بنى سعد بن بكر بفدك^(٢) لأنه اتصل به أنهم على وشك الاتفاق مع يهود خيبر
لمقاتلة المسلمين . فاتفق لهم أن عثروا بالطريق على جاسوس لهم ، فأمنوه على نفسه
في مقابل دلاتهم على موضع القوم ، فدلهم عليه ، فأغار المسلمون على ماشية القوم
واستاقوها إلى المدينة ، وكانت خمسمائة بعير وألفى شاة .

(و تاسعتها) - أنه لما أرسل النبي ﷺ عبد الله بن عتيك وأربعة رجال
معه لقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق زعيم يهود خيبر ، وكان لغناه ومكانه من
قومه كثير التأليب على المسلمين ، ونجح ابن عتيك في قتله بعد أن دخل في حصنه
بحيلة توصل بها إليه ، وولى اليهود أمرهم أسير بن رزام ، وجّه رسول الله من يأتيه
بخبز القوم ، فعلم أن هذا الزعيم الجديد ليهود خيبر يعمل على الاتفاق مع بنى غطفان
للتأثر من المسلمين . فبعث النبي إليه بعبد الله بن رواحة في ثلاثين من رجاله
ليستميلوه إلى المسالمة .

فلما قدم هذا الوفد خيبر عرضوا على أسير بن رزام أن يقدم معهم إلى المدينة
ويترك ما عزم عليه من الخصومة ، فيعترف به النبي ﷺ رئيسا لخيبر ، ويزول ما
بين الطرفين من الجفاء . فقبل أسير بن رزام هذا العرض وخرج في ثلاثين من

(١) غل كذا أخذه خفية ودسه في متاعه .

(٢) قرية بينها وبين المدينة ست ليال .

رجاله ، فجعل كل واحد منهم رديفا لواحد من المسلمين ، وجعل نفسه رديفا لعبد الله بن رواحة ، فينا هو بالطريق ندم على خروجه وأهوى بيده إلى سيف مردفه ليستله ، ف جذبته منه وأسرع في النزول وضربه على فخذه فقطعها ، وتولى كل مسلم رديفه فقتله .

(و (عاشرتها) - أن النبي ﷺ كان قد قدم عليه جماعة من بنى عُكْل وعُزَيْنة فتظاهروا بالدخول في الإسلام وكانوا مصابين بأعراض سوء التغذى من رقة حاتم ، فتعطف عليهم النبي ﷺ فأمر راعيا له أن يعطيهم حاجتهم من ألبان بعض إبله ، وأشار عليهم أن ينتقلوا إلى مرعى تلك الإبل حتى تعود إليهم صحتهم ، فصدعوا بالأمر ؛ ولما آنسوا في أنفسهم القوة بعد شفائهم قتلوا الراعي ومثلوا به وأخذوا الإبل وفروا . فأمر رسول الله ﷺ كُرْز بن جابر الفهري أن يأخذ عشرين فارسا ويلحق بهم ويقتادهم . فلما جيء بهم إليه أمر أن يُمَثَّلَ بهم كما مثلوا بالراعي ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم ، وألقوا خارج المدينة حتى ماتوا .

أما ما ورد من النبي عن التمثيل بالأعداء فقد حدث بعد هذه الحادثة .

(و (حادية عاشرتها) - أن النبي ﷺ أرسل عمرو بن أمية الضمري وكان رجلا فاتكا في الجاهلية ، وأصبحه بمعين له ، ليقبلا أبا سفيان بن حرب غيلة ، جزاء له على إرساله رجلا ليقبلا النبي غيلة .

فلما شخص عمرو بن أمية إلى مكة توجه ورفيقه ليطوفا بالبيت ، فعرف رجلا من المشركين عمرا وأذاع الخبر ، فرأى عمرو أن ينجو بنفسه قبل أن يقبض عليه ، فرجع هو وشريكه إلى المدينة وبقي أبو سفيان حيا حتى أسلم عندما شرع رسول الله ﷺ يفتح مكة .

أما خبر الرجل الذي كان أرسله لاغتيال النبي ﷺ ، فإن أبا سفيان قال يوما وهو ينادي قومه : ألا رجل يذهب لحمد فيقتله غيلة لنستريح منه ؟ فنهض إليه رجل وتعهد له بذلك . فأعطاه راحلة ونفقة . فلما وصل إلى المدينة كان النبي ﷺ بمسجد بني عبد الأشهل فذهب إلى ذلك المسجد ، ولما وقعت عينه على رسول الله ﷺ قصده متظاهرا بالطاعة وانحنى عليه ، فخشى أسيد بن حضير أن يكون قد أسر

شرا فجذبه من إزاره ، فسقط الخنجر الذى أعده له ، فافتضح أمره ، وسأله النبى
عن الحامل له على سوء نيته ، فصَدَّقَه وأسلم من ساعته .

• • •

نظرة على ما سبق :

إننا لم نعمل فى كل ما مر فى هذا الفصل إلا سرد الحوادث التى وقعت فى
الستين الخامسة والسادسة للهجرة ، وكنا نستطيع أن نقف عند الحد الذى انتهينا
إليه لنستأنف بقية السيرة المحمدية فى الأعداد التالية ؛ ولكننا شعرنا أن القارئ سيُشعر
بشيء من الحيرة عندما يقرأ ما عومل به المستسلمون من بنى قريظة من الشدة ،
وما حُكم به على الجماعة من عكل وعرينة من التمثيل ، جزاء قتلهم رجلا واحدا
وتمثيلهم به ، وما كان يُرسل من أهل الجرأة والفتك لقتل بعض رؤساء الخصوم غيلة ؛
فلهذا رأينا أن التعقيب على هذه الحوادث واجب .

جاء الإسلام لينشر إصلاحا يشمل الأديان والأصول والمبادئ التى كانت تقود
الجماعات الإنسانية وأخرجت عن حدودها ؛ ولبت أصول ومبادئ أدبية جديدة لا بد
منها لتكميل أدوات التطور الاجتماعى ، تكميلا لا تحتاج بعده لأدوات أخرى ؛
واقضى هذا الإصلاح أن تقام له دولة تمثله وتدافع عنه . لأنه ثبت أن كل إصلاح
دينى أو اجتماعى لا تنقصر روحه دولة ، تنافح العوامل المحللة دونه ، يضمحل
ويزول كأن لم يكن . والدليل المحسوس على هذا أنه لم يوجد ولا يوجد دين أو
نظام مدنى قام بدون دولة . وهذه الديانة النصرانية ظلت فكرة مضطهدة مدة ثلاثة
قرون متوالية حتى قامت لها دولة ، سُفكت فى سبيلها دماء ، وهُدمت هياكل وبيع ،
فقويت واشتدت ونشرت رواقها على أوروبا برمتها ، وعلى بقاع كثيرة من القارات
الأخرى .

فكان لا بد للإسلام من أن يقيم لنفسه دولة ؛ والدولة عمل إنسانى يقتضى
ككل عمل إنسانى أن يناسب البيئة التى يعمل فيها ، والنفوس التى يحتك بها ، ويحطم
العقبات التى تقوم دونه .

وهذا العمل الإنسانى فى البيئات التى تصل بعد إلى أرفع درجات السمو الأدبى

لا يجدى فيه القيام على المثل العليا إلا بعد أن يصل إلى غايته القصوى ؛ أما وهو لا يزال في دور التكوين فلا بد للقيام به من أن ينتزل إلى استخدام الأساليب التي لا تتأثر النفوس الراهنة إلا بها . وإذا كان من النفوس من تكفيها الإشارة ، ومنها من لا يؤثر فيها إلا السواط يلهب ظهور أصحابها ، فمن الجماعات ما تجزع في زجرها المثل العليا من العدالة ، ومنها ما تفسدها هذه المثل العليا نفسها ، ولا ينفع معها إلا معاملتها بمثل ما تعمل لتقتاد إلى ما يصلحها .

إذا أنصف خصوم الإسلام وجب عليهم أن يعجبوا كيف لم تشع هذه المعاملة الشديدة في الدور الأول من تأسيس الدولة الإسلامية ، وتكون هي الأسلوب العملي لتقويم أمة جاهلية من الطراز المتحجر ، لا أن تقتصر على حادثتين أو ثلاثة فيه ، فإن معالجة الجماعات التي فسدت نفوسها بالعيش آلافا من السنين على حالة البداوة ، وقست قلوبها حتى صارت كالصخور أو أشد قسوة ، تضطر أرق المصلحين لها أن يعمدوا كارهين إلى وسائل توائم ما هي عليه من التحجر المستعصى ، وخاصة إذا كان المراد نقلها عما هي عليه ، خلافا لسنن التطور ، في سنين معدودة .

ليس يدرك صحة ما نقول إلا من ابتلى بإصلاح رجل واحد ممن نذكر ، ورأى كيف نعجز جميع وسائل التقويم المعروفة في علاجه ، وكيف يُلقي المنطق سلاحه ، وتتحطم نصال الأدلة الماضية دون إصراره وعناده .

على أن حادثتين أو ثلاثا مما لاحظته الخصوم واقتضتها أحوال خاصة ، لا تكسر صفو تاريخ حافل بآيات ، أصغر واحدة منها تنحني أمامها الرعوس إجلالا ، وتفيض منها القلوب إيمانا ، وتزداد بها العقول عرفانا (*) .

الجهاد الأدبي يبرز الجهاد الحربي

صلح الحُدَيْبِيَّة

وما أحدثه من هدم الوثنية

في السنة السادسة من الهجرة أخبر النبي ﷺ أصحابه بأنه يريد العمرة ؛ والعمرة هي الطواف بالبيت في غير وقت الحج ؛ وطلب إلى الأعراب المحيطين بالمدينة أن يخرجوا معه ، ولكنهم تلاكأوا ثم قالوا له : قد شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . وكان السبب الصحيح في تناقلهم أنهم ظنوا أن المشركين يفتكون بالمسلمين ؛ وقد أشار إلى ذلك الكتاب الكريم في قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ^(١) شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِالسَّيْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ، بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ، وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَّتُمْ ظَنُّ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ^(٢) ، أَى هَالِكِينَ .

فتركهم النبي ﷺ وخرج في ألف وأربعمائة من أصحابه ليس عليهم من السلاح شيء غير السيوف ، وساروا حتى وصلوا عسفان ، فجاءه الخبر بأن قريشا أحست بمجيئهم وأجمعت على صدهم ، واستعدت للحرب تحت قيادة خالد بن الوليد (ولم يكن أسلم) . فاتبع المسلمون طريقا غير الطريق المعروفة ، فلم يشعر القرشيون إلا والمسلمون بجوارهم في مستوى سهل يملك مكة من أسفلها . وأمر النبي أصحابه بالنزول في أقصى مكان اسمه الحُدَيْبِيَّة فيه بئر تحمل هذا الاسم . وهناك أقبل سفير لقريش يدعى بُذَيْل بن ورقاء يسأل عن سبب قدوم المسلمين . فأخبره النبي بأنه جاء معتمرا .

ثم أرسلو خُلَيْس بن علقمة سيد الأحابيش ، وهم أعراب لا أحباش كما يتوهم

(١) الأعراب : سكان البادية من العرب . والعرب : اسم جنس ، ويطلق على المتحضرين .

(٢) سورة الفتح ، الآيتان (١١ - ١٢) .

بعضهم ، فلما قدم على المسلمين وجدهم يلبيون ، فَعَلَّ من يريد العمرة لا الحرب ، فعاد إلى قريش وأخبرهم بأن القوم جاءوا معتمرين ، ولأهمهم على منعهم .

فقالوا له أنت أعرافي وليس لك علم بالكائد ، وأرسلوا عروة بن مسعود الثقفي سيد أهل الطائف ، فأقبل على رسول الله وكلمه قائلا : يا محمد قد جمعت أوباش الناس وجئت إلى عشيرتك لتفضها بهم ، إن قريشا قد عاهدت الله أن لا تدخلها عليهم عنوة ، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك . وكان عروة يتكلم وهو يمس لحية النبي ﷺ ، فكان المغيرة بن شعبه يقرع يده كلما أراد ذلك .

ثم رجع عروة وقد أدهشه ما يجده رسول الله من تهجيل أصحابه له ، فقال لقومه : يا معشر قريش والله لقد جئت كسرى وقصر فما رأيت ملكا في قومه مثل محمد في أصحابه . فاقبلوا ما يعرضه عليكم فإني أخاف أن لا تنصروا عليه .

فتأثرت قريش بما قاله عروة لهم ولكنها أصرت على المشارة . واتفق أن رسول الله رأى أن يرسل عثمان بن عفان في عشرة من أصحابه سفيرا من قبله لإبلاغ قريش ما قصده من مجيئه . فبلغ عثمان رسالته إلى قريش . فقالوا له : إن محمدا لن يدخلها علينا عنوة ، وحبيوه هو وأصحابه عندهم . فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قتل .

بيعة الرضوان :

لما ذاع خبر قتل عثمان دعا النبي ﷺ أصحابه لمبايعته على الموت في قتال المشركين ، فبايعوه على ذلك تحت شجرة هناك سميت بعد ذلك بشجرة الرضوان ، ونسبت إليها تلك البيعة .

وكانت قريش ، وقد اعتزمت أن تلجأ إلى الشدة ، قد أرسلت خمسين رجلا تحت قيادة مِكرَز بن حفص ليطوفوا بمسكر المسلمين عسى أن يصيخوا منهم غيرة ، فشعر بهم الحرس فأسروهم وأقلت قائدهم . فلما بلغ ذلك قريشا أرسلت كتيبة لمناوشة المسلمين ، فأسر المسلمون منهم اثني عشر رجلا ، وقتل من المسلمين واحد .

عند ذاك خشيت قريش مغبة هذا المركب الخشن ، فلانت عريكتها ولجأت إلى الملاينة ، وأرسلت سفيرا من قبلها هو سهيل بن عمرو طالبة الصلح . فلما قابل

رسول الله ﷺ قال : يا محمد إن الذى حصل ليس من رأى عقلائنا ، بل هو شئ قام به السفهاء منا ، فابعث إلينا بمن أسرت . فقال له النبي : حتى ترسلوا الذين عندكم .

عند ذاك أرسلوا عثمان والعشرة الذين كانوا معه ، وقدم سهيل الشروط التى تطلبها قريش وهى أربعة :

- (١) تقرير هدنة بين قريش وبين المسلمين أربع سنين .
- (٢) إذا لجأ رجل من قريش إلى المسلمين فعليهم ردّه ، وإذا فر واحد من المسلمين إلى قريش فليس عليها رده .
- (٣) أن يعود المسلمون هذا العام بغير عمرة ، ويأتوا فى العام الذى يليه فيدخلوا مكة بعد أن تخلّوها لهم قريش ثلاثة أيام ، ولا يكون معهم من السلاح إلا السيوف والأقواس .
- (٤) من أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش فله ما أراد ، ومن طلب أن يدخل فى عهد قريش فله ما أراد كذلك .

فقبل النبي ﷺ هذه الشروط دون تردد ، وداخل المسلمين منها أمر عظيم ، وأجمعوا على أن يكلموا النبي فيها . فكان مما قالوه له : يا رسول الله ، كيف نرد إلى المشركين من جاءنا منهم مسلما ، ولا يردون هم إلينا من فر إليهم مرتدا ؟ فقال لهم النبي : إن من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له مخرجا .

وبلغ من شدة وقع هذا الصلح على المسلمين أن عمر بن الخطاب نفسه قصد إلى أبى بكر وأظهر امتعاضه منه . فقال له الصديق : إنه رسول الله وليس يعصى ربه ، وهو ناصره .

فلم يقتنع عمر بما قاله له صاحبه ، وذهب إلى رسول الله ، وقال له مثل ما قال . لأبى بكر .

فقال له النبي ﷺ : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعبنى .

فاستدعى النبی أوس بن خولة وأمره أن يكتب الشروط . فاعترض سهيل وطلب أن يكون الكاتب علی بن أبی طالب أو عثمان بن عفان .

فأمر النبی علیا أن يكتب ، وأمله بسم الله الرحمن الرحيم .

فاعترض علی ذلك سهيل وقال : إن قریشا لا تعرف إلا باسمك اللهم .

فضج المسلمون من هذا التشدد ، وأمر علیا أن يكتب باسمك اللهم .

ثم قال له اكتب : هذا ما صالح علیه محمد رسول الله .

فاعترض سهيل علی ذلك ، وقال : لو كنا نعرف أنك رسول الله لم نقاتلك

ولم نصدك عن البيت ، ولكن اكتب باسمك واسم أبیک .

فقال النبی لعلی : ارح رسول الله یا علی . فصعب علیه أن يحوه ، فتناول

النبی الكتاب ومحا بيده ، وقال لعلی اكتب : هذا ما صالح علیه محمد بن عبد الله

سهيل بن عمرو .

بعد كتابة هذه الشروط وتسلم كل من المعكرين نسخة منها ، وأصبحت

ناقذة ، أقبل رجل من المسلمين يدعی أبا جندل بن سهيل لاجئا إلى المسلمين ، وكان

القرشيون قد منعه من الهجرة . فقال له النبی ﷺ : إننا قد عقدنا مع القوم صلحا

وأعطيناهم وأعطينا عهدا فلا تغدر بهم . فاصبر واحتصب فإن الله جاعل لك

وللمستضعفين مخرجا .

لما تم أمر التعاهد أمر رسول الله أصحابه أن يتحللوا من عمرتهم وذلك بأن

يخلقوا رؤوسهم ، وينحروا هديهم . فأصابهم من ذلك كرب عظيم حملهم علی عدم

المبادرة بالامثال . فدخل النبی علی زوجته أم سلمة ، وكان قد استصحبها معه ،

وقال : هلك المسلمون ، أمرتهم فلم يمتثلوا .

فقالت له : یا رسول الله اعذرهم ، فقد حملتهم أمرا عظيما بهذا الصلح ،

وكانوا يريدون أن يفتحوا مكة ، فهم لذلك مكرويون ؛ فابدا يا رسول الله بما

تأمرهم به ، فإذا رأوك فعلت اتباعوك . فاتبع النبی مشورتها ، فلما رآه المسلمون

يتحلل من العمرة فعلوا مثل ما فعل ، وعادوا معه .

ما كاد المسلمون يستقروا في مدينتهم حتى لحقت بهم أم كلثوم بنت عقبة أخت عثمان لأمه ، فطلبها المشركون . فقالت : يا رسول الله إني امرأة ، وإن أرجعت إليهم فتتوفى في ديني ، فتزل على النبي في ذلك حكم وهو قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَاثْتَحِنُوهُنَّ ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَّهُنَّ ، وَأَتَوْهُنَّ مَا أُفْقُوا ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ، وَلَا تُنْسِكُوا بَعْضَ الْكَوَافِرِ ، وَاسْأَلُوا مَا أُفْقْتُمْ ، وَلْيَسْأَلُوا مَا أُفْقُوا ، ذَلِكَُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ (١) .

مؤدَّى هذا الحكم أن المرأة المؤمنة إذا جاءت مهاجرة استحلفت بأنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، ولا من بغض زوج ، ولا لاتماس دنيا ، ولا لرجل من المسلمين ، ولكن حبا لله ولرسوله ، فإن حلفت فلا ترد ويعطى زوجها المشرك ما أنفق عليه . وكذلك يفعل مع الزوجة المشركة فتزد إلى أهلها بعد أن يعطوا زوجها المسلم ما أنفق عليه .

وحدث أن أبا بصير عتبة بن أسيد الثقفي فر إلى رسول الله فأرسلت قريش في أثره رجلين يطلبان تسليمه إليهما . فأمره ﷺ بالرجوع معهما . فرجع مع صاحبيه . ولما قارب ذا الحليفة عدا على أحد حارسيه فقتله وهرب منه الآخر . ورجع إلى رسول الله ثانية قائلاً له : قد وفيت ذمتك . فقال له : لا ، اذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة . فخرج إلى ناحية على طريق الشام تمر به تجارة قريش ، فأقام به ، واجتمع به نفر ممن كانوا مسلمين بمكة ونجوا ، ولحق به أيضا أبو جندل بن سهيل اللاتذ الأول ، وأخذوا يقطعون الطريق على تجارة قريش ، فاضطر المشركون أن يرسلوا إلى رسول الله يرجونه إبطال هذا الشرط من المعاهدة ، فقبل منهم ، وعما الله من تلك المعاهدة ما كان يجد منه المسلمون ألماً ممضاً .

التأثير العظيم الذى أحدثه صلح الحديبية :

روى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن مجتبع بن حارثة الأوسى قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا منها وجدنا رسول الله ﷺ واقفا عند كُرَاع الْعِمِيم ، وهو موضع أمام عسفان ، وقد جمع الناس وقرأ عليهم : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ ، الآيات . فقال رجل : يا رسول الله أو فتح هو ؟ قال : إى والذى نفسى بيده إنه لفتح .

قد يعجب القارئ لأول وهلة أن يصف الكتاب الكريم بالفتح المبين ما اعتبره جيش برمته ضعفا واستسلاما ، ما عدا واحدا هو أبو بكر .

وقد رأى المؤمنون بأعينهم ثمرة هذا الصلح ، وتبين أنه كان أجل أثرا وأعظم عائدة على جماعتهم من أى فتح تقدمه ، بل رأوا أنه كان يجب أن توجد هذه الهدنة لتمهد السبل أمام الإسلام بفتح القلوب له من طريق الاقتناع العقلى ، لا من طريق السيف وحده . فإن كل فتح فى تاريخ البشرية اعتمد على القوة وحدها انهار عقب قيامه مباشرة ، ما دام لم يصحبه تأثير أبقى فى النفوس تتألف منه عقيدة تخالط العقول والقلوب ، وتصبح بذلك حاجة روحية للقائمين به .

فالحق سبحانه وتعالى ، الذى كتب للإسلام أن تكون له دولة تُحدث فى العالم من ضروب الانتقالات الأدبية والاجتماعية ما لم تحدثه الفتوحات الكبرى مجتمعة ، أراد أن يكثر عديد الذين يصبح لهم الإسلام عقيدة متغلغلة إلى أعماق ما تصل إليه عقيدة من ضمائرهم ، ليقوموا به كحاجة قلبية لهم ، إلى جانب ما هو عليه كحاجة اجتماعية لوجودهم . وكيف يتسنى هذا فى وسط المعارك الدامية ، والسخائم المستعرة ؟ فكان لابد من وجود هُذُنَةٍ يُلقَى فيها السلاح جانباً مدة كافية ليتمكن العقلاء من الناحيتين من التقابل والتفاهم ، والأخذ والرد ، والإقناع والاقتناع ، حتى يكون فى الجماعة رجال كثيرون انضموا إليها منقادين لأصوات ضمائرهم ، لا مستسلمين لعامل المنفعة ، فلا يلبثون بعد ارتفاع اليد الماسكة عنهم أن يعودوا لما كانوا عليه من جاهلية وما ورثوه وألفوه من وثنية .

من أراد أن يعرف الفرق بين هاتين الحالتين بدليل محسوس ، أحلناه إلى حقيقة

تاريخية وهى : أنه على أثر قيام الجماعة الإسلامية على صورة دولة قبيل فتح مكة وبعدها ، دخلت القبائل العربية المنتشرة فى جزيرة العرب فى الإسلام ، وكان دخولها فيه للمحافظة على وجودها ، ولاتقاء قارعة نحل بها من جراء شذوذها ؛ فلما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى شقوا عصا الطاعة على من خلفه ، وعادوا إلى وثنيهم ، ومنعوا الأنابات التى كانت تتقاضاهم إياها الدولة ؛ فاضطر أبو بكر إلى مقاتلتهم وإعادتهم إلى الطاعة بالقوة . وكان هذا العمل مما يستحيل حدوثه لو كان السواد الأعظم من مقيضى تلك الدولة على شاكلة هذه القبائل التحقوا بالإسلام طلباً للمصلحة ، لا عن اقتناع راسخ بحقيقته .

ولكن الذى كان أن السواد الأعظم من أولئك الأصحاب والأنصار كانوا يعتقدون عقيدة راسخة بأنهم يمثلون ديناً هو حاجة روحية لهم ، ويقومون بنظام اجتماعى وأدبى سينقذ الإنسانية من أدواتها القاتلة ، وأنه سيعلو ويمتد حتى يؤتى أهله بخلافة الله فى الأرض ، ويعيش الناس فى رعايته على أكمل ما تكون عليه الإنسانية من سعادة مادية ومعنوية . هذا العامل الأدبى دفعهم لأن يبذلوا أموالهم وأرواحهم فى سبيل الزيادة عن حوضه ، والدفاع عن بيضته ، وإعادة المنشقين عنه إلى حظيرته .

فأنت ترى أن هذا العامل الأدبى الذى أدت إليه العقيدة الراسخة ما كان ليتشر فى ألوف من الناس لو اعتمد ناشروه على القوة وحدها . وكيف كانت تنهياً البيئة لتبادل الآراء فيه ، وإقامة الأدلة عليه ، لولا عهد طويل من السلام يحدث فيه اختلاط بين رجال القبيلين يفضى كل منهم إلى خصمه بما هو عليه ؟

هذا من لباب العلوم الاجتماعية التى لم يفتح بها على الناس إلا فى القرون المتأخرة ؛ ناهيك أن الناس عز عليهم أن يفهموا ما سماه كتابهم فتحاً مبيناً ، فى الوقت الذى كانوا يعتقدون فيه أنه مظهر من مظاهر الاستخذاء والتسليم لعدوهم .

ولم يطل العهد على الذين أنكروا هذا الصلح ، فقد تجلت لهم حكمته فى أجلى مظاهرها بعد عقده بستين عند فتح مكة . فقد روى سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن الشعبي فى قوله تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ أنه قال : ه لم يكن فى الإسلام فتح قبله أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت

الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس بعضهم بعضا ، والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، لم يُكَلِّمْ أحد ذو عقل في تلك المدة في الإسلام إلا دخل فيه . ولقد دخل في تينك المستين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر ، ويدل عليه أنه ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة ، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة في عشرة آلاف » . اهـ .

لا جرم أن هذا من أعظم دلائل النبوة ، فإن إقدام النبي على عمل استكره أصحابه كلهم ، والتشدد في إمضائه إلى هذا الحد ، لم يكن من عادته ﷺ ؛ فقد أثر عنه أنه كان يستشير أصحابه ويعمل بمشورتهم فيما لم ينزل فيه وحى . وقد أخبرهم في هذه المرة بأنه نزل في هذا الصلح وحى ، ودعاه الكتاب الكريم بعد إتمامه فتحا مبينا ، خلافا لما كان يراه فيه الناس كلهم ، وقبـ ظهر أنه يستحق هذا الوصف بعد ظهوره بسنتين اثنتين .

لو كانت الأمور تجري على عادتها ، لكان هذا الصلح الذي اعتبره المسلمون مذلا لهم ، قد زاد المشركين غرورا بقوتهم ، وعمسكا بوثنيتهم ؛ أما وقد أنتج عكس ما كان ينتظر منه ، وصُدِّق الكتاب في تسميته إياه فتحا مبينا ، فهذا مما لا يمكن تعليقه إلا إذا اعتبر وحيا إلهيا ، لا تدييرا بشريا .

إن أمثال هذه المعجزات هي التي يعتد بها العلم ، ويرى فيها مظهرا من مظاهر الاتصال بعالم أرفع من هذا العالم ، يُعَدُّ منه الإنسان بما لا تعطيه الطبيعة المجردة من خطط العمل ، ولا سيما فيما يتعلق بالشؤون الاجتماعية التي لا يدركها إلا الذين حذقوا العلم بأحوال النفوس ، وطبائع البشاشات ، وعوامل التطور ، وأين هم من هذا كله في ذلك العهد من الظلام الدامس ، وفي تلك البقعة من قرارة البداوة المنحلة ؟ (*) .

الرسالة المحمدية عامّة للبشر كافة إعلانها للدول رسميًا

في السنة السادسة من الهجرة ، وبعد صلح الحديبية ، رأى النبي ﷺ أن الوقت قد آن لإعلان العالم أجمع برسائله العامة ، فأرسل للملوك الذين كانوا يتوزعون الأمم في زمانه سفراء يحملون كتباً منه إليهم ، يدعوهم فيها إلى الإسلام ، موقعا عليها بخاتم اتخذته منقوشا عليه (محمد رسول الله) . فوجه دحية الكلبي إلى أمبراطور الرومانيين بكتاب جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ^(١) » و« يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي بكتاب إلى كسرى ملك الفرس جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . أدعوك بدعاية الله ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحقق القول على الكافرين . أسلم تسلم ، فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس » .

وأرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط بكتاب كان فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط .

(١) الأريسيين أى الفلاحين في القرى . وجاء في رواية (الأكارين) وهم الفلاحون أيضا جمع أكار .

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرک مرتين ، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط . و « يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وكلف عمرو بن أمية الضمري أن يحمل إلى النجاشي ملك الحبشة كتابا جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة سلم . أما بعد ، فإن أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعمى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده . وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالة على طاعته ، وأن تتبغنى وتوقن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله . وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل . وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى » .

وكتب إلى ملك البحرين ، وإلى ملكى عمان ، وإلى هوزة بن على ملك اليمامة ، وإلى أقيال اليمن ، وإلى كل من كان يمكن أن يصل إليه كتاب من قادة الجماعات البشرية ، يدعوهم فيه إلى الإسلام ، وينذر من تخلف عن قبول دعوته منهم بسوء المصير .

تأثير هذه الكتب فيمن أرسلت إليهم :

لما وصل كتاب النبي ﷺ إلى قيصر ملك الرومان ، طلب أن يبحث له عن رجال من العرب ليسألهم عن رسول الله ، فاتفق أن كان أبو سفيان بن حرب بالشام فى تجارة مع جماعة من قريش ، فدعوههم لمقابلة الأمبراطور . فلما مثلوا بين يديه ، قال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه رسول ؟

فأجابه أبو سفيان : أنا . لأنه كان من بنى عبد مناف أحد أجداد النبى ، فقال له قيصر : اذن منى . ثم سأله : كيف نسب الرجل فيكم ؟ فقال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب .

فسأله : هل ادعى هذه الدعوى أحد قبله منكم ؟ فقال : لا . قال : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يدعى ما ادعى ؟ قال لا . قال : فهل كان من آباءه ملك ؟ قال : لا . قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم . قال : بل ضعفاؤهم . قال : يزيدون أم ينقصون ؟ قال أبو سفيان : بل يزدون . قال الأمبراطور : هل يرتد أحد منهم سَخَطَةً لدينه ؟ قال : لا . قال قيصر : هل يغدر إذا عاهد ؟ قال أبو سفيان : لا ، ونحن الآن منه في ذِمَّةٍ لا ندرى ما هو فاعلٌ فيها . قال : فهل قاتلتموه ؟ قال : نعم . قال : فكيف حربكم وحربه ؟ قال : هي بيننا سجال مرّةً لنا ومرّةً علينا . قال قيصر : فبِمَ يأمركم ؟ قال أبو سفيان : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشرکوا به شيئاً ، وينهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

وقد روى بعد هذا أن الأمبراطور استتج من هذه الأجوبة أن محمداً رسول الله حقاً . وقال : إن كان ما كلمتني به صحيحاً فسيملك موضع قدميّ هاتين . ثم روى أن قيصر لما كان بحمص جمع عظماء الروم وأمر أن تغلق أبوابها ، وقال لهم : يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبی ؟ فحاصبوا حِصَّةَ حُمُرِ الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة . فلما رأى قيصر نفورهم استدعاهم وطيب نفوسهم ، وزعم أنه قال لهم ما قال ليختر ثباتهم في دينهم .

أنا أشك في صحّة هذه الرواية ، وإنما أثبتتها هنا لإجماع كتاب السير على إيرادها ، وإنما شككت فيها لأنه مما لا يعقل أن يكون قيصر الرومان من سرعة التصديق بحيث يعتمد في إيمانه على رواية رجال لا يعرف مبلغ صدقهم فيما يقولون ؛ ولم يسألهم عما يجب أن يسأل عنه ذو دين قائم عن الأسباب التي دعت لنسخه بدين جديد ؛ ولم يبحث في قيمة هذه الأسباب .

فإذا لم تكن هذه الرواية مختلفة كلها ، فيمكن أن تحال إلى ما يمكن حدوثه عادة ؛ كأن يظن أن حب الاستطلاع حمل أمبراطور الروم أن يستحضر بعض من كان في مملكته من تجار العرب ليسألهم عن رأيهم في هذه الديانة الجديدة وفي سيرة

القائم بها . أما أنه يتحول إليها بهذه السرعة ويدعو إليها قومه ، وهم من أشد
المسيحين تمسكا بالمسيحية ، فمما لا يمكن قبوله بوجه من الوجوه .

وكان تأثير كتاب النبي ﷺ في ملك الفرس أنه غضب منه غضباً شديداً
حمله على تمزيقه والقذف به .

أما تأثيره في المقوقس فكان الشك في صحة الرسالة الحمديّة . فإنه لما قرأ
كتابه قال لحامله إليه حاطب بن أوى بلتعة : مانع محمداً إن كان نبياً أن يدعو على
من خالفه وأخرجه من بلده ؟

فقال له حاطب : فما منع عيسى حين قبضوا عليه أن يدعو عليهم ويهلكهم ؟
أجمع كتاب السيرة أن المقوقس أجاب النبي ﷺ بكتاب قال فيه : « سلام
عليك ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد
علمت أن نبياً قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ،
وبعثت لك بخاريّتين هما مكان عظيم في القبط ، وبشباب ، وأهديت إليك بغلة
تركبها ، والسلام » .

وأنا أسلم بأن المقوقس أهدى النبي ﷺ ما ذكر في هذا الكتاب ، وهو
أشبه بكرم أخلاق الأقباط ، ورقة طباعهم ، ولكنى لا أسلم بصحة ما ورد في
الكتاب المنسوب للمقوقس ، من أنه كان يعتقد ببقاء نبي آخر لم يبعث . فإن هذا
لا يتفق وعقيدة النصارى ، فإنهم كانوا يعتبرون أن ديانتهم قد تمت بتجسد الابن
وصليه واقتدائه البشر بنفسه .

والذى وضع هذا الكتاب أراد إظهار المقوقس بمظهر الذى تأثر قلبه بالدعوة
الحمديّة ، فأحضاه اختيار الأسلوب ، وإلا فما معنى قوله : (بخاريّتين هما مكان
عظيم في القبط) ، فمتى كانت للأرقاء مكانات عظيمة في نظر الأمم ؟

وإنى إنما أنبه على أمثال هذه المآخذ لشحذ الهمم على تطهير السيرة الحمديّة
من كل ما لا يتفق والذوق السليم وحكم العقل . فإذا كان بعض القدماء عمدوا
إلى إهمال النقد في بعض ما تناقلوه ، فلا يجوز للمعاصرين أن يتابعوهم فيه ، فقد

علموا أن الدلائل على سمو مكانة النبي ﷺ أصبحت تحت ضوء العلم وفلسفته من الكثرة بحيث يعد منها ولا تعد .

وأما تأثير كتاب ﷺ في النجاشي ، فقد روى أنه لما وصل إليه الكتاب وضعه على عينيه ، ونزل عن سريره فجلس على الأرض ، ثم أسلم . ودعا بعد ذلك بحق من عاج فجعل فيه كتاب رسول الله وقال : لن تزال الحبشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم . ثم أمر أن يكتب له جوابه ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة . السلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركات الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني للإسلام . إلى أن قال : فأشهد أنك رسول صادق مصدق . وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يده لله رب العالمين » .

نقول : لا يخالج قلبي شك في أن هذا الكتاب مختلف على النجاشي ، لا لأنه أكبر من أن يخضع للدعوة المحمدية ، فقد خضع لها من الملوك من يفخر النجاشي أن يكون خاضعا لسلطانهم ، ولكن لظهور أثر الصنعة في كل عبارة من عباراته ، بل كل كلمة من كلماته ، فأنتى للنجاشي وهو في قاصية من مجاهل أفريقيا ، وبين ظهرا في شعب أمي ، يضمن بعقائده الموروثة ضننه بنفسه ، يكون من سرعة التصديق بحيث يستبدل دينه ديناً جديداً لمجرد دعوته إليه ، وينقلب متحمساً له إلى حد أن يستهتر في حبه وحب الداعي إليه على نحو ما رأيت ؟

ليست الدعوة المحمدية في حاجة إلى إظهار عظمتها بمثل هذه المفتريات الساذجة ، وقد سرت في الجماعات والأفراد سريان الروح في الأجساد ، وبسرعة حار في تقديرها العقل ، حتى بلغ الذين قبلوها مائة مليون نسمة في نحو قرن ، وامتد سلطانها على بقاع من الأرض في ثمانين سنة ، لم يبلغ إلى مثلها ملك الرومان بعد جهاد ثمانية قرون متوالية .

الإسلام دين مُنزل للإنسانية كافة :

لم تصادف الكتب النبوية التي أرسلها النبي ﷺ للأمم والجماعات التي كان يمكن الاتصال بها على عهده ، نجاحاً يذكر ، وما كان هذا النجاح مؤملاً ، ولكنها

دلت على أمر جلل ، لم يدون له شبيه في تاريخ رسول من الرسل ؛ دلت على أن الإسلام دين عالمي وليس بدين قومي ، وهنا موطن الدهش من هذا الحادث العظيم الفذ في تاريخ البشر .

رجل ينهض من بين قبيلة لا عهد لها بكتاب ولا حكمة ، ولا اجتماع جنسى منظم ، ولا رباط أدبي محكم ، يتدب لدعوة الأمم كافة إلى دين عام يجمعها حول أصل واحد ، وهو لا يزال في وسط الطريق من دعوته لقومه الأقربين ، لا يدرى أيفوز عليهم أم يفوزون عليه ! هذا حادث عظيم لا يكفى فيه التعجب ، ولا يشفى منه الدهش ، ما دام يقدر بالموازين العادية ؛ ولا يوضع في كفته أن محمدا إنما كان يعمل بوحى يصدر إليه ، ويطرسم خطة توضع له وبكلف بالجرى عليها . بهذا الافتراض وحده تحل هذه العويصة حلا يقبله العقل ، ويثلج عليه الصدر ، وتكشف به عوامل خفية تحل كثيرا من غوامض النبوة ، ومسائر الاتصالات العلوية .

محمد كان رجلا من قريش مثل سائر مواطنيه ، لا يعرف من أمر العالم أكثر مما يعرفه سواه ، وإنما امتاز عنهم بأنه كان يوحى إليه ، ويؤمر بما يجب أن يسير عليه ، وقد كلف أن يصارح الناس بهذه الحقيقة : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ، وَلَا أَتْلُوهُ الْعَتَبِ ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

فالذى أوعز إلى محمد أن يدعو الأمم كافة إلى ملته ، قبل أن يطمعن على نجاح دعوته في البيعة المحدودة التي كان فيها ، هو الحق الذي كان يوحى إليه القرآن ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته . فالذى يهم الباحث المستقل أن يعرفه هو : هل فيما أنزل على محمد تصريح بأنه أرسل الناس كافة ، وهو ما لم يُصرَّح به في كتاب أنزل على المرسلين الذين جاءوا قبله ؟

إذا بحث هذا الباحث عن ذلك وجد قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً

لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ، ووجد تصريحاً خطيراً آخر بأنه خاتم النبيين .

هنا تتور فيه رغبة ملحة أن يرى هل في الدعوة نبأ عظيم يساوى أن يبلغ إلى الناس كافة ، وهل في أصول هذا الدين ما يرشحه لأن يكون ديناً عاماً للعالمين ؟ إذا بحث في هذه الناحية تبينت له أمور على أعظم جانب من جلالته القدر ، وهى :

(١) أن الإسلام ليس بدين جديد ولكنه الدين الأول الذى أنزله الله على جميع المرسلين ، وتناوله أتباعهم بالتحريف .

(٢) أن دين الإنسانية واحد ولا يجوز التفرق فيه .

(٣) أن الذى أوجب التفرق فى دين الإنسان هو البغى والتعصب لأغراض دنيوية ليست من الدين فى شيء .

(٤) وأن محمداً أمر أمراً صريحاً بالدعوة لوحدة الدين على الأساس الذى توليناه بالتبيين .

(٥) وأن الدين العالمى الحق هو أن يؤمن الإنسان بجميع المرسلين من غير تفرقة بين أحد منهم ، ويكتب الله كافة ، فإن فى جميعها الحق والهدى والنور .

(٦) وأن من يؤمن ببعض المرسلين ويكفر بالبعض الآخر فلا يقبل منه دين . ومعنى هذا أن الإسلام يعتبر الدين وحدة لا تقبل التجزئة ، وهذه نظرية فى الدين تصل إلى درجة من السمو ليس فوقها مرتقى ، وهى ما سيؤول إليها العالم حتماً بعد أن يصل به الرقى إلى أفق رفيع .

(٧) وأن هذا الدين العام هو مآل البشرية جمعاء ، ولا معدى عنه مهما سعى فى طمس معالنه المضللون .

إليك الآيات الناطقة بالنصوص الصريحة الدالة على ما نقول :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبَّرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْرثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ . فَلِذَلِكَ فَاذْعُ (أَى لتوحيد الدين فادع) ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ (أَى لا محاجة ولا خصومة) ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نَفْرُقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ، فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَرَّعُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (وهو الدين الأقدم) وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْثُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٤) .

﴿ أَغْفِرَ دِينَ اللَّهِ يَتَعَوَّنَ ، وَلَهُ أُسْلِمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ

(١) سورة الشورى ، الآيات (١٣ - ١٥) .

(٢) سورة البقرة ، الآيات (١٣٦ ، ١٣٧) .

(٣) سورة الأنعام ، من الآية (١٥٩) .

(٤) سورة آل عمران ، الآية (١٩) .

لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ .

الدين في نظر الإسلام وحدة لا تتجزأ ، وهو دين الإنسانية بأسرها ، فمن لم يؤمن من به جملة فلا يقبل منه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (١) .

هذه هي بعض الآيات التي أردنا إيرادها . وقد قلنا : هل في الإسلام نبأ عظيم يساوى أن يبلغ إلى الأمم كافة ؟

يسوغ لنا الآن أن نقول بأعلى صوتنا : أجل ! وليس هذا فحسب ، بل متبقى الحاجة داعية إلى تبليغ هذا النبأ العظيم للأمم شرقا وغربا ما بقي في الناس قلب يعي وأذن تسمع (*) .

(١) سورة آل عمران ، الآيتان (٨٣ ، ٨٤) .

(٢) سورة النساء ، الآيتان (١٥٠ ، ١٥١) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الثاني عشر ، الجزء السابع ، رجب سنة ١٣٦٠ هـ .